ہماری قال لی

توفیق الحکیم

توفيق الحَكيم

حماري قال لي

{طُبِع للمرة الأولى سنة ١٩٤٥}

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي – الفجّالة

دار مصر للطباعة

سَعيد جوده السَحّار وشركاه

كتب للمؤلف نُشرت باللغة العربية

١ – محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢– عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣ – أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤– شهرزاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥– يوميات نائب في الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦– عصفور من الشرق (رواية)	١٩٣٨
٧– تحت همس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨– أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩– عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠– حماري قال لي (مقالات)	١٩٣٨
١١– براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢– راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣– نشيد الانشاد (كما في التوراة)	١٩٤٠
١٤– حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥– سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦– من البرج العاجي (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧ – تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨– بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩– سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠– زهرة العمر (سيرة ذاتيه – رسائل)	١٩٤٣
٢١– الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤
٢٢ – شجرة الحكم (صور سياسية)	١٩٤٥
٢٣– الملك أوديب (مسرحية)	١٩٤٩
٢٤– مسرح المجتمع (٢١مسرحية)	١٩٥٠

٢٥- فن الأدب (مقالات)	١٩٥٢
٢٦- عدالة وفن (قصص)	١٩٥٣
٢٧- أربني الله (قصص فلسفية)	١٩٥٣
٢٨- عصا الحكيم (خطرات حوارية)	١٩٥٤
٢٩- تأملات في السياسة (فكر)	١٩٥٤
٣٠- الأيادي الناعمة (مسرحية)	١٩٥٩
٣١- التعادلية (فكر)	١٩٥٥
٣٢- إيزيس (مسرحية)	١٩٥٥
٣٣- الصفقة (مسرحية)	١٩٥٦
٣٤- المسرح المنوّع (٢١مسرحية)	١٩٥٦
٣٥- لعبة الموت (مسرحية)	١٩٥٧
٣٦- أشواك السلام (مسرحية)	١٩٥٧
٣٧ - رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية)	١٩٥٧
٣٨- السلطان الحائر (مسرحية)	١٩٦٠
٣٩- يا طالع الشجرة (مسرحية)	١٩٦٢
٤٠- الطعام لكل فم (مسرحية)	١٩٦٣
٤١- رحلة الربيع واالخريف (شعر)	١٩٦٤
٤٢- سجن العمر(سيرة ذاتية)	١٩٦٤
٤٣- شمس النهار(مسرحية)	١٩٦٠
٤٤- مصير صرصار(مسرحية)	١٩٦٦
٤٥- الورطة (مسرحية)	١٩٦٦
٤٦- ليلة الزفاف (قصص قصيرة)	١٩٦٦
٤٧- قالبنا المسرحي (دراسة)	١٩٦٧
٤٨- بنك القلق (رواية مسرحية)	١٩٦٧
٤٩- مجلس العدل (مسرحيات قصيرة)	١٩٧٢

٥٠- رحلة بين عصرين (ذكريات)	١٩٧٢
٥١- حديث مع الكوكب (حوار فلسفي)	١٩٧٤
٥٢- الدنيا رواية هزلية (مسرحية)	١٩٧٤
٥٣- عودة الوعي (ذكريات سياسية)	١٩٧٤
٥٤- في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسة)	١٩٧٥
٥٥- الحمير (مسرحية)	١٩٧٠
٥٦- ثورة الشباب (مقالات)	١٩٧٥
٥٧- بين الفكروالفن (مقالات)	١٩٧٦
٥٨- أدب الحياة (مقالات)	١٩٧٦
٥٩- مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير)	١٩٧٧
٦٠- تحديات سنة ٢٠٠٠(مقالات)	١٩٨٠
٦١- مقاعد خالية (حوار مع المؤف)	١٩٨٢
٦٢- التعادلية مع الأسلام والأسلام والتعادلية (فكر فلسفي)	١٩٨٣
٦٣- الأحاديث الأربعة (فكر ديني)	١٩٨٣
٦٤- مصر بين عهدين (ذكريات)	١٩٨٣
٦٥ – شجرة الحكم السياسي (١٩٧٩- ١٩١٩)	١٩٨٥

كتب للمؤلف نُشرَت في لغات أجنبية

شهرزاد: تُرجِمَ ونُشِرَ في باريس عام١٩٣٦بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان) بنيويورك في عام١٩٤٥. وبأمريكا في دار نشر (ثري كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١

عودة الروح: تُرجِمَ ونُشِرَ بالروسية في لينينجراد عام١٩٢٥وبالفرنسية في باريس عام١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية في واشنطن ١٩٨٤.

يوميات نائب في الأرياف: تُرجِمَ ونشر بالفرنسية عام١٩٣٩(طبعة أولى) في عام١٩٤٢(طبعة ثانية) في عام١٩٧٤و١٩٧٨(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وتُرجِمَ ونُشِرَ بالعبرية عام١٩٤٥وترجم ونشربااللغة الإنجليزية في دار(هارفيل) للنشر بلندن عام١٩٤٧- ترجمة أبا أيبان، ترجم إلى الأسبانية بمدريد عام١٩٤٨.
وتُرجِمَ ونُشِرَ في السويد عام١٩٥٥، وتُرجِمَ ونُشِرَ بالالمانية عام١٩٦١وبالرومانيه عام١٩٦٢وبالروسية عام١٩٦١.

أهل الكهف: ترجم ونشر بالفرنسية عام١٩٤٠بتمهيد تاريخي لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام١٩٤٥وبميلانو عام١٩٦٢وبالأسبانية في مدريد عام١٩٤٦.

عصفور من الشرق: وتُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية عام١٩٤٦طبعة أولى، ونُشِرَت طبعة ثانيةً في بارس عام١٩٦٠.

عدالة وفن: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام١٩٦١

بجماليون: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠

الملك أوديب: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١.

سليمان الحكيم: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠وبالانجليزية في أمريكا بدار نشر ثري كنتنتزا بريس) بواشنطن١٩٨١.

نهر الجنون: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠.

عرف كيف يمرت: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠.

المُخرج: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠.

بيت النمل: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية بباريس عام١٩٥٠وبالإيطالية في روما عام١٩٦٢

الزمّار: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠.

براكسا أو مشكلة الحك: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠.

السياسة والسلام: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠. وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١.

شمس النهار: تُرجِمَ ونُشِرَ بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتننتزا بريس) بواشنطن١٩٨١

صلاة الملائكة: تُرجِمَ ونُشِرَ بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتننتزا بريس) بواشنطن١٩٨١

الطعام لكل فم:تُرجِمَ ونُشِرَ بالإنجليزية في أمريكا(ثري كنتننتزا بريس) بواشنطن١٩٨١

الأيادي الناعمة:تُرجِمَ ونُشِرَ بالإنجليزية في أمريكا(ثري كنتننتزا بريس)بواشنطن١٩٨١

شاعر على القمر:تُرجم ونُشر بالإنجليزية في أمريكا(ثري كنتننتزا بريس)بواشنطن١٩٨١

الورطة:تُرجِمَ ونُشِرَ بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١.

الشيطان في خطر:تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠

في يوم وليلة: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٠وبالأسبانية في مدريد١٩٦٣

العش الهاديء: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٤.

أريد أن أقتل: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٤.

الساحرة: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٣.

دقت الساعة: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٤.

إنشودة الموت: تُرجِمَ ونُشِرَ بالإنجليزية في لندن هاينمان عام١٩٧٣وبالاسبانية في مدريد عام١٩٥٣.

لوعرف الشاب: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٤.

الكنز: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٥٤.

رحلة إلى الغد: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٦٠، وبالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتننترا بريس) بواشنطن ١٩٨١.

الموت والحب: تُرجِمَ ونُشِرَ بالفرنسية في باريس عام١٩٦٠.

السلطان الحائر: تُرجِمَ ونُشِرَ بالانجليزية في لندن هاينمان عام١٩٧٣وبالإيطالية في روما عام١٩٦٤.

يا طالع الشجرة: ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالانجليزية في لندن عام١٩٦٦ في دار نشر أوكسفورد يونيفرستي بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر "نوفيل إيديسون لاتين" ببارس).

مصير صرصار: ترجمة دنس جونسون دافيز عام١٩٧٣.

مع:كل شيء في مكانه، السلطان الحائر، نشيد الموت. لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان – لندن.

الشهيد: ترجمة داود بشاي (بالانجليزية)جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان (أدبنا اليوم) تحت مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة١٩٦٨.

محمد ﷺ: ترجمة د. إبراهيم الموجي ١٩٦٤(بالانجليزية) نشرالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية. طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣.

المرأة التي غلبت الشيطان: ترجمة تويليت إلى الألمانية عام١٩٧٦ونشره روتن ولوننج ببرلين

عودة الوعي: ترجمة انجليزية عام١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان – لندن.

رُويَ عن النبي أنه قال:

﴿إنّي لأمزَح و لا أقولُ إلّا حقّاً﴾

عن أبي هُريره

مَن هو ((حماري))

الحمار له في حياتي شأن...إنه عندي كائن مقدس كما كان الجعران عند المصريين القدماء، لقد عرفته منذ صغري في صورة جحش جميل اشتراه لي أهلي بثلاثين قرشاً، وجعلوه لنزهتي في الريف.. وكانت له برذعة صغيرة حمراء لا أنساها.. وكنّا خير رفيقين.. لا نفترق إلّا للنوم... لقد كان في مثل سِنّي... أي في طور الطفولة من فصيلته، كما كنت أنا في طور الطفولة في جنسي.

على هذه الحال من المودة عشنا حتى فَرَّقت بيننا الأيام، فذهبت أنا إلى مدارس الحضر، وبقي هو في ريفه. وعدت في الصيف بعد أعوام فوجدت الحياة قد تنكّرت له؛ فالبرذعة الحمراء قد نُزِعَت من فوق ظهره، وأُلقيَ بها في مكان مهجور، ووضع مكانها (غبيط) يُحمَل فيه التراب والسماد والطين... فدَنَوْتُ منهُ، ومسحتُ رأسَهُ المعفّر بكفّي، فنظر إليَّ نظرةً حزينة، وكأنه يقول لي:

– (أَرأيت؟ ... لقد ذهبت

الطفولة وولَّت أيام الهناء؟)

وحزّت تلك النظرة في قلبي، ونظرت إلى مَن حولي قائلاً:

– (أما كُنتُم تستطيعون أن تجنّبوه هذا العمل الشاق المهين.. وتجعلوه على الأقل للركوب!) وكأنه فهم عني، فقد رفع رأسه نحوي وكأنه يقول:

– (لا فائدة!... لاتُجهد نفسك معهم.. ما من أحد غيرك يعرف لي قدراً!..)

ولم تستطع شفاعتي أن تغير شيئاً مما كُتِب عليه.... فتركته لصبره... ثم بلغتُ مرحلة الشباب، وفرغت من الدرس، واشتغلت بتأليف الروايات التمثيلية... فلم يفُتني أن

أجعل من الحمار شخصية في رواية لي؛ فظهر على المسرح ولم أره للأسف، فقد كنت غادرت مصر وذهبت إلى أوربا فجاءتني الأخبار بأن الحمار أدّى واجبه على أكمل وجه، وقام بدوره في الرواية على نحو يستحق الإعجاب... ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهور المشاهدين نظرة عميقة؛ ثم فعل فعلة غير لائقة لوّثت خشبة المسرح ... وخرج بين سخط الممثلين وهرج النُظّار والمتفرجين...

وقد بلغني أنه ظُرِب عندئذ وطُرِد وأُهين، ولو كنت أنا حاضراً لدافعت عن ذلك المسكين. وأغلب ظنّي أنه أدرك بغريزته *أن الجمهور لم يفهم الرواية... فناب عني في إظهار إحتقاره له بالطريقة التي رآها مواتية*. ومضى نحوعشرين عاماً، فرأيتُ الجحش مرةً أُخرى في شوارع القاهرة، وإشتريته بثلاثين أو خمسين قرشاً مرةً أخرى ولكن هيهات... لقد كان هو في طفولته وأنا في كهولتي، فلم يكن بيننا غير صمت طويل إنتهى بموته... أتراهُ أدركَ بسليقتِهِ أنَّ أوان اللعب قد فات بالنسبة إلي!.. فآثر أن يتركني سريعاً قبل أن أستكشِف بنفسي هذه الحقيقة فأحزن؟... لقد سميته ((الفيلسوف)) وقد عَلَّمني أشياء كثيرة بمجرد صمته وإرتفاعه عن لُجج هذا البحر الخضم: بحر السخف الإنساني!... ثم رأيتُ الحمار بعد ذلك في الريف أثناء زيارة قصيرة في أحد الأعياد... ذهبت للراحة بضعة أيام... وقد خطر لي أن أصطاد السمك في جدول غير بعيد – فسرت على أقدامي مع بعض الفلاحين يحملون لي عصا الصيد،

وساء تقديري لقوة إحتمالي للسير... فقد شعرتُ بالجهد والتعب بعد مائة خطوة... ولم يجدوا لي حيلة غير وضعي على صهوة حمار من حمير التراب كان يعمل في حقل قريب... ولم أرَ والله في حياتي أتعس ولا أشقى من ذلك الحمار... كان الدم يقطر من ظهره، لثقل (الغبيط) وهزال جسمه، وبروز عظمه...ولا أحد يرحم... وكان يتضوّر من الجوع ويمد بوزه إلى كل عود أخضر يجده في الطريق فلا يلقى غير اللكم

مِمَّن يقودونه، ولا يظفر بغير اللطم... لقد كان ذلك الحمار مُلكاً لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحين، الذين لا يملكون للحمير قوتاً...ولا يدّخرون ما عندهم من (العليق) إلا للجاموسة والبقرة التى تدر اللبن.. أمّا الحمار فهو في نظرهم لا يساوي أكله... وهو يُذكَر عند المهمة العنيفة والعمل الشاق... ولكنه يُنسى عند حلول الأكلة النظيفة؛ فعلى المسكين إذن أن يلقط ما يصادف في طريقه من عشب مهمل أو ورق زرع متروك... وليتهُم مع ذلك يدعونه يفعل، فهم يدفعونه في ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلاً لإلتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلكأ ويتلاكع ويتكاسل عن عمله المفروض – أما إذا حدثته نفسه اللعينة؛ فمال رقبته على حقل للذرة، وفقد رشده وخرج عن وعيه، وهبر بأسنانه عوداً منها أوكوزاً دانياً؛ فهى الطامة التي لا تدانيها طامة... فإن الصياح يعلو من كل جانب ويهرع أصحاب الزراعة بالهراوات ينهالون بها على المسكين وهم يتصايحون: (حوشوا الحمار نزل غيط الذرة!...).

ذلك هو الحمار الذي امتطيته ذلك العصر.. وقد وجدت مشيته أبطا من مشيتي.. ولكن فهمت السبب؛ فتركته يسير كما يشاء، ويلتقط ما شاء.. ونهرتُ كل من أراد بالضرب حثَّهُ على الركض، بل لقد فعلت أكثر من ذلك؛ لقد تركته — وقد شعر ولا شك بتسامح راكبه – يمد فمه إلى كوز ذرة دنا من طريقه... وشرع الفلاحون في الصياح فأسكتهم في الحال بقولي: – (أتركوه!... اتركوه).

مُرغمين. أما هو فقد طحن الكوز بأسنانه طحناً سُمِع له خشخشةً وبلع؛ فكان لحركة البلع في حلقه معمعة، وخُيِّل ألي أني أرى الطعام يُحدِث عنده لذة لم يحسها المسكين منذ أمد طويل... وسار بعد ذلك وكأن كل خطوة من خطواته تسبيحة حمد وشكر... إلى أن بلغنا الجدول المقصود، فترجلت، وأخذنا في الصيد، وأوصيتهم أن يتركوا الحمار يرعى الكلأ النابت على حافة الماء... وشهد الله لقد كانت ساعة لم ينعم بمثلها.. والله إذا أعطى فإنه يعطى أحياناً بغير حساب...

فقد تهيأ لذلك الحمار السعيد وقتئذ الماء والخضرة... فاظفره الله بالباقي: أي الوجه الحَسِن في صورة حمارة شابة كانت ترعى هي الأخرى مع بعض خراف ونعاج على مقربة منه... فما راعَني — وأنا مشغول بصيدي – إلّا صوت من بين الفلاحين يصيح:

– (حوشوا الحمار والحمارة..!) فالتفَتُّ فإذا المغازلة على أتمّها بين الحبيبين..

فقلت: – (إتركوهما) فتركوهما حتى إنفصل أحدهما عن الآخر... وفرغت أنا من صيدي، فركبتُ الحمار عائداً وهو يركض بي كالمرِح، فقد أكل، وشرب، وتنزّه، وغازل...إنها لحظة من الهناء قد سرّني وأسعدني أني أَتحتُها لهُ...

ولكن القدر قد جعله يدفع ثمنها غالياً... فالمكتوب عليه الشقاء؛ ويجب أن يُحاسَب على كل فرحة تتسرب إليه خلسة من يد القدر النائم...ولم تمض بالفعل أيام حتى سمعتُ أن ذلك الحمار قد نفق جوعاً، وسقط إعياءً وسط الحقل، رازحاً تحت أثقال ما يَحمل من تراب.. فألقى الفلاحون بجثته في المصرِف.. ولم يكلّفوا أنفسهم حتى مؤونة دفنه، وضنوا عليه حتى بذلك التراب الذي قضى حياته التعسة كلها في حمله عل ظهره... فلما بلغني ذلك أمرتهم أن ينتشلوا جثته من الماء في الحال وأن يدفنوه ولستُ أدري حتى هذه اللحظة أفعلوا أم سخروا وكذبوا عليَّ وتغافلوا عنه حتى جرفه التيار...

***

من بين هذه الحمير الأربعة: أين حماري الذي يحادثني وأحادثه؟!... إنه ليس واحداً بالذات من بينها... إنه جميعها. إنه هو كلها مُجتمعة في واحد، هو روح هذه الاربعة التي عرفت، إنه النوع بفصائله، والفصيلة بصفاتها... إنه أي حمار، رأيته أو لم أره... مهما تكن ظروفه ومصائره...أى حمار من تلك الحمير التي أعرف أو لا أعرف هو لي صديق.. أحبه وأحدب عليه، وأنهم ما يجول في خاطره.. وأنظر إلى عينيه واصغي

إليه، فيُخيل إليَّ أن صمته الطويل قد إنفرج عن حديث مؤنس يُدلي به إليَ، وأسألة طريفة يُلقيها عليَّ...

حماري و الطوفان!

جلس حماري إلى جواري كالمعتاد وقال:- أخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فترتفع عن مجالسة مثلي....

قالها بنبرة أعرفها في صوته.. إنه مخلوق يجيد نوعاً من السخرية ليسَ من الهيّن أن يُلمّح في كل الأحيان...

لأنه مغلف في طيات التواضع والتسليم والاذعان، ولكنى أعرف فيه قوة المقاومة وصلابة الرأس، وشيئاً من الإعتداد بالذات؛

لا يظهر إلّا إذا وخز وخزة تجرح نفسه... لذلك ألجأ معه إلى المزاح في القول والإغلاظ في التهكم، حتى أرغمه على مصارحتي بكل مشاعره...فأجبته:

- وأنا أخشى أن يركبك الوهم؛ فتحسب أن لافرق بيني وبينك...!

- لا تخف.. إن الوهم لا يركبني أبداً... لم يركبني غير الواهمين!...

- من أمثالنا معشر البشر.... أليس هذا ما تعني؟...

- ما أردت أن أمس كرامتك... إن بيننا وبينكم صلات ود من قديم... لقد زاملناكم، وركبنا معكم سفينة نوح في عهد الطوفان.....

فأدركت غرضه الخفي من الإشارة إلى هذا المستند التاريخي، وبادرتُ أقول:

- ليس هذا بدليل على الزمالة...لقد ركبت معنا كل الحيوانات، مما يؤكل ومما لا يؤكل...من الأسد والفيل، إلى الفار والخنزير... واقرأ تاريخ أبي الفداء تجد فيه أنه كانت للسفينة ثلاث طبقات: طبقة فيها للدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير، ولقد فكرنا نحن الإنس فيك وخفنا على أمثالك من الدواب أن يفترسها

الأسد، *فدعا نوح ربه فسلط على السبع الحمّى، فكانت أول حمى نزلت إلى الأرض...ثم شكوا الفارة لإفسادها الطعام والمتاع، فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخبات الفارة منها.. وكثر أرواث مثلك من الدواب، فأوحى الله إلى نوح أن أغمز ذنب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة*، فأقبلا على الروث إلى غير ذلك مما حدث في السفينة وتدبّرناه نحن معشر الإنس بفكرنا الناضج، حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير المشاكل التي تقتضي الحل وتستوجب التدبير.. ولم نَرَ منكم معونة ولا زمالة تُهوِّن علينا محرجات ذلك الموقف الخطير.

– لا تتكلم عن فصيلتي... لقد كان لنا رأي في السفينة والطوفان... وما دمت تنكر التاريخ والمؤرخين، فإرجع إليهم ينبئوك أن آخر ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار!..وما هو، من فضلك، رأيكم في السفينة والطوفان؟.

– لا تسألني رأيي؛ بل أجبني أنت بفكرك الناضج، *لماذا كان الطوفان وكانت السفينة*!؟.. – لماذا؟... للظلم والفساد اللذين كانا قد عمّا الأرض... وللضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان...

– *من أجل ذلك أغرق الله الأرض بما فيها من شرور وآثام وبمن عليها من طغاة وأصنام؛ إلّا تلك النُخبة الصالحة التي وُضعت في السفينة، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير، وأجيالاً جديدة يقودها الحق...*

— هو ذاك؟...

– *وهل سادَ بعد ذلك الخير، وإنتصر الحق*؟!..

– ماذا تعني؟...

– أَلَم يقُل لك مؤرّخوك: ان قوم عاد كانوا أول مَن عَبَد الأوثان بعد الطوفان؟.. كل شيء رجع نبت من جديد.. بعد أن غيض الماء... وبلعت الارض ماءها، ورجعت

الحمامة إلى نوح وفي منقارها ورقة الزيتون وفي رجلها الطين، وأخضرَّ وجه الأرض ونبت الزرع والضرع، والخير والشر أقوى مما كان وأخصب...

– نعم... نبت الشر من جديد... أتدري لماذا؟.. لأن ابليس كان قد دخل السفينة مع من دخل، ولم يغرقه الطوفان مع من أغرق... أتدري كيف تسلل إبليس إلى السفينة؟.

– لا...كيف تسلل؟...

– *يروى عن المؤرخ إبن عباس أن إبليس دخل متعلقاً بذنب الحمار*!....

– أَوَ كان إبن عباس هذا شاهد عيان؟!...

– لستُ أدري.. انما أُحدِّثُكَ بما جاء في بطون الكتب...

– خير لك أن تحدثني برأيك أنت في نتيجة كل ذلك؟...

– نتيجته أن نوحاً خرج بعد ذلك إلى الأرض، هو ومن معه من أنس ودواب و إبتنى مذبحاً لله، وأخذ من الطير والدواب الحلال، فذبحها قرباناً إلى الله، سائلاً إياه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض، فعهد الله إليه أن لا يُعيده، *وجعل تذكاراً اليه القوس الذي في الغمام*، *وهو قوس قزح*، الذي قال إبن عباس: إنه أمان من الغرق، وقال آخرون أنه قوسٌ بلا وتر: أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مره...

– الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة بعد أن ثبتت قلة جدواه في المرة الاولى!...

– أنت تقصد ولا شك طوفان الماء، هذا حقيقة... لم يحدث غير مرة... وقد وعد الله بأن لا يعيده... ولكنه إستعاض عنه بطوفان من نوعاً أخر يحدث في كل جيل مرة أو أكثر... ذلك طوفان الدماء!..

– حتى طوفان الدماء ماذا صنع؟... وماذا أجدى؟...أَلَم تكُن الحرب الكبرى الماضية طوفان دماء!...

– طبعاً...

– لقد إنتهت النازلة وختمت المجزرة، وشربت الأرض دماءها وإبتلعت آثامها... وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حطمت... وأوثان الطغيان قد هُدِمَت، وأن الحق وحده هو المسيطر، وأن الخير هو المنتصر... وأن الدول الصغيرة والدول الكبيرة سواء أمام سلطان الحق وحده... وأن الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساوية أمام سيد واحد هو: النفع العام لبني الإنسان دون أثرة أو نعرة... ونهض الناس ينظرون في كل أمّة إلى قوس النصر وقبر الجندي المجهول، كما نظروا إلى قوس قزح... سائلين الله أن لايعيد الحرب مرة أخرى...فما الذي حدث؟...أجبني...ما الذي حدث بعد؟

– حدث الذي حدث في الطوفان الأول بلا زيادة ولا نقصان... حدث أن تعلّق إبليس بذيل...

– بذيل مَن؟....

– بذيل الرئيس ولسون!.. صاحب المباديء الأربعة عشر المشهورة، التي كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام.

– إذن لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر؟...

– بالطع... وها نحن أولاء في طوفان جديد... لم تبتلع الأرض بعد دماءه؛ بل لو ذهبت الحمامة لما وجدت ورقة زيتون تلتقطها، ولا عشاً تأوي إليه... فقد ضربت القنابل كل بناء، وهدمت كل جدار... ولكن الناس يحتملون كل ذلك صابرين، وينظرون إلى الغد مستبشرين، ويعللون أنفسهم بأن هذا آخر طوفان.

– كما قالوا في كل مرة...

– أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل، وأن تبلغ رشدها، وأن تتحرر نهائياً من طغيان الغرائز الدنيا.. وأن تكف عن تمزيق بعضها بعضاً، وأن ترتفع إلى حيث تعمل متكاتفة لمصلحة الإنسانية كلها جمعاء، دون ضغائن ولا سخائم ولا بغضاء ودون تمسك بغرور كاذب، وعظمة زائفة، وحب تسلّط، وشهوة سيطرة...

– قل بالإختصار: دون عبادة لأصنام الكبرياء الذاتي.

– هو ذاك.

– إسمح لي أن أقول: إن هذا شيء عسير على الانسان...لابد للإنسان من عبادة الأصنام... لم يستطع طوفان الماء.، ولا طوفان الدماء، أن يغرق الأصنام التي يصنعها الإنسان لنفسه!.. إن الإنسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله... لأن الله لا يميز بين جنس وجنس، ولا فصيلة وفصيلة...

هو النور العام الذي يُضيء لكل الكائنات... وهو الحب العام الذي يربط كل شيء بكل شيء... ولكن الإنسان لا يفهم ذلك... انه لا يرى الا ما تصنع له يده من صور نفسه الجشعة الأثرة) العجرفة العمياء.. كلا.. إن الله بعيد... بعيد من الإنسان.. وإنه أرفع وأعلى وأعمق من أن يتصل به الإنسان...ربما كنت أنا وفصيلتي أقدر على حبه.. هل سمعت منذ بدء التاريخ أن فصيلة الحمير عبدت أصناماً؟!...

– إني معك.... مع الاسف.

– أجبني إذن: *ما فائدة الطوفان إذا كان.. إذا كان لا يستطيع أن يُغرِق إبليس*!؟.

– أرجو– قبل كل شيء – أن لا تصدق أن إبليس دخل السفينة متعلقاً بذيل الحمار

– بل هذا أصدقه..

– تصدق هذا؟!...

– بالتأكيد....

لأن الحمار يحمل نفساً صافية، ومباديء مثالية، وإبليس خبيث، يحب العبث والسخرية، ولا يحلو له أن يعبث ويسخر إلا من أصحاب النفوس الخيّرة والمثُل العليا! فلا عجب إذا دخل مكاناً أن يتعلق بتلابيب أطيب القوم قلباً، وأسماهم فكراً... إنه لا يلازم التافهين، ولكنه يتمسَّح بذوي الشأن.. إنه يحب الدخول من الباب

الكبير... لذلك تراني أنظر إلى هذا الطوفان الأخير بعين القلق... أبحث عن الرجل المثالي الذي سيدخل في أذياله إبليس!...

– أَكُتِبَ عليكم هكذا معشر البشر أن تعيشوا في سفينة ضالة في بحر الظلمات بغير المثل الأعلى.. تحيون كالديدان في الحمأة، يأكل بعضكم بعضاً؛ فإذا وُجِد بينكم من يحمل مشعل المثل العليا إنقلب سخرية للساخرين ولعبة في أيدي العابثين؟

– تلك هي المشكلة...

– حتى الطوفان لم يحلها؟...

– لم يُجعَل الطوفان ليحل شيئاً... ولكن ليلطف من وقع الأشياء.. إنه حمّام يهدييء أعصاب البشرية كلما احتاج الأمر، لقد فقدت الأمل في وجود العلاج الحاسم... فلم يعد حتى طوفان الدماء في نظري غير نوع من الحجامة أو الفصد، يلجأ إليه الإنسان كلما إزداد الضغط.

– أتدري أين العلاج؟...

– أين؟...

– عندي...

– عندك؟...

– نعم... عندي العلاج.. وإذا قلت لك عندي، فربما أقصد عند فصيلتي، فنحن نفكر جميعاً تفكيراً واحداً، فليس عندنا حمار مثالي وآخر... مادي ليس عندنا زعماء ولا قادة، ولا أوثان ولا أوطان، بل يوجد حمير على أرض الله وكفى... شعورها واحد وقلوبها واحدة...

– هذا جميل...

– نعم.. ولذلك أستطيع – إذا سمحت لي – أن أجد العلاج لكم معشر الإنسان!

– حقاً... هذا هو الذي كان ينقضا!... يا لمجد الإنسانية المنهار!... أيذلنا القدر هذا الإذلال؛ فلا نجد مَن يُهديا إلى علاج أمرنا غير حمار؟!

– كبرياؤكم.... كبرياؤكم... كبرياؤكم الزائل...أنه في دمكم!... دمكم الذي فسد...لا أمل فيكم ولاعلاج لكم إلا بعملية نقل الدم.. نقل دم جديد..

– أظنك سقترح أن ينقل الينا دم حمير؟!..

– لا.. إنها لتضحية كبرى من فصيلة الحمير؛ لا أنصح لها أن تتحملها من أجلكم..

حماري وهتلر

جعل حماري يحدثني ذات مساء في الطغيان والطغاة، ويسترسل في الحديث وأنا عنه لاهٍ كالنائم، وما أنا بنائم... فلقد إنتزعني خيالي وطار بي، وألقاني في أساطير الماضي: بين يدي ((شهرزاد)) وأنا أعرف شهرزاد كل المعرفة... ولقد أبرزتها في كتاب...آه.. يالها من إمرأة...

شهرزاد!... إذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم، فإعلم أنك لفظت بإسم عظيم فهوأسم تلك التى استطاعت أن تجعل من شهريار سافك الدماء رجلا مهذباً، مُحباً للخير مترفعاً عن العدوان... لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسداً أصم او الريح المخصبة واحة مقفرة... واهتدى شهريار بهديها، وتمت بذلك معجزتها، فإنزوت في بطون الأساطير...

ولكن في هذا العصر عاد شهريار جديد إلى الظهور، لا في صورة ملك بل في صورة (فوهرر) يقطن قصراً، لا في بغداد، بل في برختشجادن وهو لايكتفي بذبح عذراء في كل صباح كما كان يفعل شهريار الأول بل إن ((حمّام الدم)) الذي لديه أرهب وأروع.... وشرد بي الخيال، فتصورت شهرزاد تستشيرني – بصفتي مؤلفها – في أن تذهب إلى الزعيم العصري كما ذهبت من قبل إلى ملك الزمان الغابر،

لعلها تظفر بهدايته، كما ظفرت بهداية سلفه، ولعلها تنتشله من الطغيان، وتربحه لخير بني الانسان... فحمدت لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة، ولكني ترددت

إشفاقاً عليها وقلت:

– أيّها العزيزة شهرزاد!...جُعِلتُ فداك... لقد خطر ببالي كل ما خطر لك، ولقد رأيت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد، فرسمت (لصاحبنا) من الصور ما سوف يعرّض عنقي لمديته، ولسرف أُدعى إلى حمّام الدم، وأنا لا أعرف السباحة؛ فيكون هذا حمّامي الأول والأخير... أما أنت يا ذات الجمال...يا من اعتدتِ السباحة بجسمك العاجي في ذلك الحوض من المرمر القائم في قصرك العجيب!..

فقاطعتني شهرزاد قائلة:– أتخشى عليَّ وأنا الخالدة!؟... خِف على جلدك أنت أيها المخلوق الهالك!... أكبر ظني أن إشفاقك هذا ليس على شخصي بالذات، إنما هو على كتابك عني؛ الحامل اسمي الذي سوف يُحرق ويُباد إذا فشلتُ في مهمتي ووقع بيني وبين هتلر العداء... يا لهؤلاء الأدباء والكتاب إنهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم. وتركتني بلا تحية ولا وداع، واختفت عن بصري، وارتفعت في الفضاء ومضت إلى قصر (برختشجادن)،.

****

كان (هتلر) في ذلك المساء منفرداً في قاعة كبيرة من قاعات القصر، يُطيل التأمل أمام خريطة حربية، وقد شرد ذهنه واتجهت عيناه إلى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذي يقوم عليه قصره المنيع، وإذا هو فجاة يسمع خلفه حفيف الثوب، وهفيف غلاله حريرية، ويشم عطراً شرقياً ملأ جو المكان، فإستدار، فألفى نفسه وجهاً لوجه أمام إمرأة لم يقع بصره قط على أجمل منها... فعُقِدَ لسانه، وجمد في مكانه، ومرت لحظة أو لحظات...

ثم أفاق قليلاً، وقال لها كالهامس:

– مَن أنتَ؟!

– أنا شهرزاد... جئت إليك من الشرق...

وكأنما غُمر هتلر في حلم، فإذا هو لساعته يحس الأشياء من حوله تخف وترتفع قليلا في الهواء، وحُلَّت عقدة لسانه، وتحرك من مكانه، وخف لإسقبال شهرزاد، وكأنه يعرفها معرفة الأصدقاء منذ أعوام... وأجلسها في صدر القاعة.. وأراد أن يقدم اليها من الطعام والشراب ما يُقدَّم إلى الأضياف الكرام... فأبت وشكرت، وأشارت إليه بالجلوس والإصغاء، قائلة:

– فلأخبرك أولا سريعاً، لماذا جئت إليك، ان مقابلتنا الساعة قد يتوقف عليها مصير العا لم. فقطب هتلر جبينه، وزالت عنه غمرة الحلم وقال:

– جئتِ في مهمة سياسية؟... فهمت، ما أجملك رسولا من الدول الديموقراطية، إنها لشجاعة منك أن تقودي طائرة بمفردك؛ أين هَبَطت يا سيدتي الطائرة التي جئت بها؟

– أي طائره؟

– عجباً.. كيف جئتِ إذن؟

– قلت لك انا شهرزاد... شهرزاد الأساطير، شهرزاد التي طالعت خبرها، ولا ريب، وأنت صغير... وأنا بالطبع لا صلة لي بالديموقراطية أوالفاشية؛ لأني

– كما تعلم – أنتمي إلى زمان لايعرف هاتين الكلمتين... إنما أجيء إليك اليوم بصفتي الشخصية، كما جئت من قديم إلى الملك شهريار، فلبثت عنده ألف ليلة وليلة، أقصُّ عليه من ألوان القصص ما غيّر نظره إلى الحياة...

فقاطعها هتلر قائلا، وهو ينظرالى خريطته الحربية:

– ليس لدي وقت للإصغاء إلى القصص...

– هذا من سوءالحظ.. قالتها شهرزاد بنبرة لم تصمد لها عيناه، فأطرق قائلاً:

– ربما كان هذا من سوء حظي حقاً، فأنت إمرأة جديرة أن يجلس اليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة، ولكني مشغول كما ترين، ولا أحسبنى املك الإصغاء إليك أكثر من ليله... إن العصور قد تغيرت... وإن مصائر الشعوب تتقرر أحياناً في جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو مقصورة قطار.. اطرقي يا سيدتي الموضوع من بابه وأوجزي!... لم تيأس شهرزاد من هذه اللهجة الجافة. وقالت مترفّقة:

– اطمئن.. إني لا أجلس إلى أحد رغماً عن إرادته، وأني لمقدّرة قيمة وقتك الثمين الذي تنفقه في... في هدف لا أقرك عليه، وقد أكون مخطئة، وقد تكون أنت المخطيء... ثق إنّي غير مُقيَّدة برأي... غير متعصبة لمبدأ... إني حرة حتى الآن مثل هذا الهواء، وقد جئتك لأقنعك بما أرى، أو لتقتعنى بما ترى. فليكن بيننا الساعة صراع هاديء بين روح المباديء.. هل قبلت؟

– قبلت...

قالها هتلر مبتسماً، وقد طمع في اقناع شهرزاد، وأمل في أن يربحها هو إلى جانبه، ومن يدري؟...

لعلّه يستطيع أيظاً بعد ذلك أن يلحقها بوزارة دعايته تحت إدارة الهر جوبلز... ليس بينه إذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهرزاد بآرائه... هنا رفع رأسه مستبشراً.. ومر بيده على خصلة شعره المتهدلة عل جبينه كأنها جناح غراب وقال:

– سوف أقنعك بمبادئي...

– بغير عنف؟...

– بغير عنف...

– إنه ربح لا يُستهان به، أن تسمح بحرية الرأي والكلام والمناقشة، ولو إلى أجل قصير!.. قالتها شهرزاد بإبتسامة ذات مغزى، فأدرك هتلر لساعته أنه يكاد يقع في فخ هذه الشرقية الجميلة... فليس هو الذي قد يكسبها ويجذبها إلى النازية... ولكن

الخوف أن تجذبه هي – بغير أن يشعر – إلى روح الديموقراطية...فجهم وجهه، وعادت أليه على الفور طبيعة الجبروت، فضرب المائدة بقبضته وصاح:

– كلا... لن أسمح هنا على الاطلاق بحرية الرأي أو روح الديمقرطية، وأرجو منك أن تكفّي عن ذكر هذه الألفاظ إذا أردت أن نتفاهم،!..

فإبتسمت شهرزاد وقالت متلطّفة:

– وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم؟.. ماذا تخشى مني وأنا أحادثك على انفراد والأبواب مغلقة، ولايسمع حديثنا أحد من شعبك...إذا لم تطلق لي الحرية الساعة في محادثتك، فمعنى هذا أنك تخشى أن أقنعك؟...

– كلا لست أخشى شيئاً... تحدثي بكل ما تريدين... قالها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليتأكد من أن الحيطان ليس لها آذان، واعتدلت شهرزاد في جلستها وقالت:

– اني لا أحب العنف فن الاقناع، لا لأني ديموقراطية النزعة فأنا كما قلت لك لست أنضوي تحت حزب من الأحزاب، ولكن تلك طبيعتي منذ القدم، وانك ولا شك تعرف قصتي مع شهريار، هل تذكر أني لجأت إلى العنف في إقناعه؟...

– أشهد أنك كنتِ بارعة، ولكن ذلك لا يمنع من القول أنك كنت امرأة خطرة، لقد كنتِ أنت – ولا تؤاخذيني – الخليقة دون غيرك بحمام الدم، فإن المرأة التي تستطيع أن تحول ملكها عن سياسته، وأن تغيّر نظام حكمه في دولته ولو إلى الأصلح؛ لهي عل كل حال امرأة ثائرة على النظم...

– إني لم أكن ثائرة، ولم أتدخّل يوماً في سياسة شهريار، ولم أنصحه يوماً بإبرام أمر أو الإقلاع عن فعل...انما دخت حياته كبصيص النور الضئيل المتسلل من خصاص الأبواب، فإذا هو يرى ما لم يكن يرى، وإذا هو يصلح نفسه بنفسه، ويتحول من حال إلى حال، ومن سياسة إلى سياسة من تلقاء ذاته...

ففكر هتلر لحظة ثم قال:–

ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب؟..

ان شهريار كان يدخل كل ليلة بعذراء يقتلها في الصباح، حتى كادت تنقرض من بلاده العذارى، فلا بد أن الشعب ضج، وغضب وتهامس، وتآمر... اعترني... ألم تكوني موفدة من قبل الجماهير...

– كلا..

– من يدري.. لوكان لشهريار(جستابو) في ذلك الحين لتدارك الخطرقبل وقوعه..

– الحمد لله إذ لم يكن لديه ذلك...لوأن هذا حدث لما كان...

– لما كان اسم شهرزاد ظهر في سماء التاريخ... ولما عرفت الأجيال غير اسم شهريار وحده!...

– دعنا من التاريخ...إنما الذي يجب أن تحفل به هوالانقلاب الطيب الذي حدث لذلك الملك... إنه ولا شك قد رضيَ عن نفسه كل الرضا يوم رأى الأشياء كما ينبغي أن تُرى... سكتت شهرزاد... وحدجت الفوهرر بنظرة طويلة... فخفض بصره قليلا وأطرق...ثم قال:

– إن لك يا شهرزاد أسلوباً عجيباً في الكلام... إنك تريدين أن تلقي في روعي أن هنالك أشياءعظيمة ترينها أنت ولا أراها أنا... وتحاولين أن تدخلي في نفسي الشك في مبادئي... ولكن فاتك أني أضع العقل دائماً في المحل الثاني، والفكر في المقام الثالث... أما المكان الأول عندي فهو للإيمان... أني أومن وأنا مغمض العينين، موصد الأذنين، مغلق العقل... أؤمن بمباديء وحدها أؤمن وأؤمن؛ ثم أؤمن... تكلمي بعد ذلك بما شئتِ...

فأبتسمت شهرزاد ثم قالت في دهاء:

– مَن قال لك إني أريد أن أهز إيمانك بمبادئك.. أني جأتُ لإقنعك أو لتقنعني.. وقد

أفشل أنا معك، وقد تفشل أنت معي.. إنّي توّاقة إلى الحرية...حرية البشر أجمعين، ولقد ذهبت إلى شهريار عندما رأيت حرية الشعب وبنات الشعب في خطر: مبدئي هو الحرية لكل إنسان، ولا استعباد لأي إنسان... فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه، سواء كان أنت أو خصومك... هذا قولي.. فإغمِض عينيك عنه، صم أذنيك إذا شئت، وأغلق فكرك..

ولكنى أنا فاتحة عيني وأذني لأتلقّى عنك ما تقول، وأزِنُ ما تُدلي به، وأتقبّل الطيّب من حديثك إذا وُجِد... ولا أكره أن أقنع بمبادئك إذا كانت نافعة للناس، فإن المكان الأول عندي دائما هوللفكر الحر، والإقتناع المطلق، ثم الإيمان بعد ذلك.. تكلم فانا مصغية إليك... و إتكأت شهرزاد بساعدها على طرف المقعد، وغرقت فيه، ورَنَت إلى هتلر بعينيها الصافيتين العميقتين، فاختلج قلبه قليلا... ولكنه تماسك وقال:

– إعلمي أولا أني ذو قلب... حذار أن تقارني بيني وبين شهريارك...إنه كان يسفك دماء العذارى؛ لأنه لم يكن يعرف الحب...أما أنا فقد أذنت بحمام الدم لأني أحب...فقالت شهرزاد في سخرية غير ملحوظة:

– امرأة....؟

فأجابها هتلر في لهجة مثل لهجتها:

– إني لست همجياً حتى أقدّم مثل هذاالقربان لامرأة...

– إنك حقاً رقيق الشعور!..

– ما من امرأة عندي جديرة بأن أهرق من أجلها قطرة من الدم... لقد قلت لك أني ذو قلب.!... وأي قلب!؟... إنه أرحب من أن يحوي إمرأة... إنه يحوي ألمانيا... وصمت... فابتسمت شهرزاد،

وقالت في هدوء:– كنت أحسبه أرحب من ذك..وأنه يحوي شيئاً أعظم من المانيا. – ماذا؟...

– الانسانية...

لفظتها شهرزاد في همسة عميقة...فوجم هتلر لحظة، ثم قال:

– ماذا تعنين؟...

– أعني أنك لو أحببت الجنس البشري كله؛ لا الجنس الآري وحده... لكنت أعظم ألف مرة مما أنت الآن،وبما تريد أن تكون.أصغ إليَّ ملياً...لماذا لم تفكر في هذا المجد؟...يدهشني حقاً أن مثلك لم تخطر له هذه الفكرة!... إن حياتك معجزة لا ريب فيها، فلماذا لم تستخدم هذه المعجزة لغاية أعظم وغرض أسمى؟!...لماذا لم توجه قوتك وثورتك للارتفاع بالإنسانية كلها... فيسطر التاريخ لك صفحة لا سطر مثلها لغير الرسل والانبياء؟...

إن الصفحة التى يعدها التاريخ لأعمالك اليوم؛ ليست بذي شأن عظيم، وقد كتب مثلها الكثيرون من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم معتمدين عل القوة العسكرية...ففرحوا بأكاليل النصر الحربي الذي زان جباههم، ولم يفطنوا إلى أنها أكاليل من الزهر الذي يذبل بعد حين..ولقد ذبلت فعلاً، وهوت، وذرتها الرياح؛ كل تلك الفتوح التي تفاخر بها أولئك القوّاد العسكريون... ذلك أن لا شيء يثبت في الأرض وينبت الثمار الصالحة الخالدة غير البذرة الطيبة التي يلقيها في نفوس البشر رجل يحب الإنسانية كافة..هذا هوالمجد الذي ليس بعده مجد لإنسان!

– إنك امرأة.. ولا يدهشني قط من إمرأة أن تبخس قدر النصر الحربي!...

– النصر الحقيقى هو ذلك الذي يستطيع أن يسير بالبشرية، ولو خطوة...ويسعدها، ولو لحظة ,. إن كلمة نبي، أوترنيمة شاعر،أو تغريدة موسيقى، لأَبقى على الدهر من صيحات الظَفَر مع طبول النصر في أكبر معركة حربية!.

– عجباً..

– فيمَ العجب إن ذلك الذي يستند إلى قوة الله، – وهو النبي والرسول – وذلك

الذي يستند إلى قوة الفكر – وهو العا لم والفنان – لأبقى وأخلد من ذلك الذي يستند إلى قوة الجيش!!... شرد هتلر بخياله لحظة ,,. وقال كالمخاطب نفسه:

– وا أسفاه!...لطالما تقتُ إلى أن أكون نبياً!.

– من أجل ذلك هاجمتَ الله والكنيسة؟!...

– ولطالما تقتُ إلى العلم والفن!...

– ولهذا نفيت العلماء والفنانين؟!...

– عبقرية بلادي هي عبقرية عسكرية قبل كل شيء... لم أفطن إلى ذلك يوم قامت في نفسي تلك القوى الجائحة تدفعني أن أعمل شيئاً للتاريخ... لا تنكري يا شهرزاد أن المعجزة تتخذ لون الأرض التى تظهر عليها، وأن العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التي ينبت فيها...لا تحسبي عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لإبراز نبي من أنبياء الشرق.

– هذا صحيح.... ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته وأمته وعصره، لينشر تعاليمه التى تنفع الإنسانية كافة... هكذا فعل المسيح و محمد؛ لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد وطنه و زمانه ليبذر فيهما المثل الأعلى الإنساني...وقد أُضطهدا وعُذّبا في سبيل ذلك، وقد إنتصرا آخر الأمر ذلك الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان... ثق أني لا أخدعك.. إن الخلود هو لمن يعمل لخير الانسانية كلها، ورفعة الجنس البشري كله... لهذا كانت غلطتك الكبرى، أنك أحببت جنساً واحداً، وكرهت بقية الأجناس!..وعملت لرفعة شعب واحد ليستعبد بقية الشعوب!.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام (المباح)،.

– المباح مؤقتاً بإذن خاص من هتلر–وسكت (الفوهرر) ولا يدري أحد أكان سكوته لاقتناعه بحديث شهرزاد، أم للتفكير في طريقة للتخلص من هذه المرأة الخطرة؟؟...

حماري و موسوليني

قال لي حماري، وهو يحدّق معي في أعمدة الصحف يوم روَت خبر سجن (موسوليني) في قلعة جزيرة (بونزا) قبل أن يهرب منها

– ترى كيف تتصوره وهو في سجنه؟!.. فشرد ذهني لحظة، ثم قلت كالمخاطب نفسي، وكأني أُبصر شريطاً متحركا:

أتصوره جالساً (منتفخاً)، وقد دخل عليه ضابط من جنود الكارابينييري القائمين بحراسته....فدار بينهما الحوار التالي:

الحارس:هل طلبتني يا سيدي؟.

موسوليني: أردت أن ألفت نظرك إلى أن الطعام هنا رديء...

الحارس: لقد نسوا يا سيدي من غير شك أن يرسلوا إلى هذه الجزيرة طُهاتك البارعين في قصر روما الفاخر!...

موسوليني: لقد نبهتك قبل الآن أن تكف عن مخاطبتي بكلمة (سيدي) أنا أصر على مناداتي بلقب (الدوتشي)!...

الحارس: ليس لدينا أوامر بذلك يا سيدي.

موسوليني: لديكم فقط أوامر بقتلي إذا حاولت الهرب؟!...

الحارس: هو ذاك يا سيدي...

موسوليني: لو كنت قرأت تاريخ (نابليون) لعلمت أنه كان يصر هو الآخر على أن يخاطب وهو مسجون في جزيرته بلقب (الامبراطور)...

الحارس: وهل أجابه حارسه إلى ما طلب؟

موسوليني: كل حارس ذي مروءة وذوق لا يرفض ذلك.

الحارس: أنا أيضاً لا أرفض أن أكون حارساً ذا مروءة وذوق... فلأمنحك إذن هذا اللقب...في هذه الحجرة المغلقة من قلعة نائية في جزيرة مقفرة... أَتَنَازل وتَتَقبّل مني هذا اللقب يا سيدي (الدوتشي).

موسوليني: ولماذا هذه الابتسامة على فمك؟...

الحارس: تلك ابتسامة لا أظن من المروءة والذوق أن أطلعك على معناها..

موسوليني: آه... حقاً... حقاً... هل لي أن أُلقي عليك سؤالاً؟...

الحارس: إني في خدمتك...

موسوليني: صارحني بالحقيقة... هل أنت وحدك الذي يسخر مني الآن؟!...

الحارس: أظن أني لست وحدي...

موسوليني: من غيرك؟...

الحارس: كثيرون...

موسوليني: أكثر من عشرة أشخاص؟...

الحارس: أكثر من عشرة ملايين...

موسوليني: عجباً.... من أي دولة؟..

الحارس: من شعبك نفسه...

موسوليني: ألا تراك مبالغاً قليلاً؟...

الحارس: من غير شك انا مبالغ في إنقاص العدد؛ فإن أولئك الذين سمعوا خطبتك من الإيطاليين وحدهم يبلغ عددهم أكثر من ثلاثين مليونا.

موسوليني: أي خطبة؟...

الحارس: خطبتك الرائعة في ذلك الموقف الرائع، وأنت على ظهر مدفع ضخم تصيح قائلا: ((ثمانية ملايين حربة تنتظر إشارتي بالهجوم... البحر الأبيض بحرنا.., مارنسترام... مارنسترام))

موسوليني: وا أسفاه!.

الحارس: أليس لهذه الملايين الآن بعض الحق في ابتسامة صغيرة؟!...

موسوليني:(مارنسترام)!

الحارس: نعم...ها هو ذا (مارنسترام)... بحرنا... بحرك.. مد إليه يديك من خلال قضبان سجنك الصغير...

موسوليني ; لقد أردت حقاً أن أمنحكم هذا البحر بهاتين اليدين؛ فوضعتم فيها الأغلال!!...

الحارس: من سوء حظنا أننا فعلنا ذلك متأخرين.. لقد تبيّن لنا – بعد فوات الأوان – أنك أعطيتنا حقيقة بحراً... ولكنه بحر من الدماء!...

موسوليني: هذا قولكم أنتم يا أعدائي... ولكن الشعب الايطالي كله يهتف الآن

الحارس: يهتف الآن بسقوطك في كل مكان...

موسوليني: أنت كاذب...

الحارس: لقد سألتني الصراحة... ولكنك لم تزل تبغضها وتخشاها...

إن أذنك التي تعوَّدت الإصغاء إلى رياء الخائفين، وزُلفى الطامعين، وتمويه المخدوعين ما زال يذعرها رنين الصدق والحقيقة...

موسوليني: أهذا معقول أن يهتف الشعب الايطالي بسقوطي؟!

الحارس: المعقول هو أن يفعل ذلك الآن...

موسوليني: كيف يستطيع ذلك؟...

الحارس: الأمر بسيط: ما دامت يدك القابضة قد أُقصيَت عن غطاء الإناء... فإن البخار المكتوم يستطيع الإنطلاق حراً في الفضاء...

موسوليني: أَوَ ينسى الشعب ما صنعت له؟..

الحارس: إذا أعطيت شعبك كل شيء، وسلبته حريته؛ فأنك لم تعطه شيئاً..

موسوليني:أينسى صوتي الذي هز مشاعره؟...

الحارس: كلاً هذا لا ينساه، إن صوتك حقاً كان مؤثراً وخطبك كانت رائعة.. وحركاتك ووقفاتك كانت بارعة...

وهل ينسى الشعب صوت (كاروزو) أو تمثيل (زاكوني)؟!

موسوليني: إني لم أكن ممثلا يا هذا...

الحارس: إنك كنت ممثلا أتقن دوره حتى نسيَ نفسه وأنسى الجماهير أنفسها... إنك أعظم ممثلاً أنجبته عبقرية إيطاليا الفنية...

مأساة حياتك وحياة إيطاليا الحاضرة: في أنك لم تتخير الظهور من باديء الأمرعلى مسرح التمثيل، وآثرت اللعب على مسرح السياسة... لقد اتبعت بغريزتك وطبيعتك عين الطرائق الفنية المسرحية، فبدأت بدراسة (شخصية) من الشخصيات... كانت هي، لسوء الحظ أو لسوء الأختيار شخصية (نابليون).. لست أدري لماذا تجذب هذه الشخصية دائماً هواة التمثيل لكل ملعب!... درستها أنت فيمن درسها... وتشبعت بها حتى جاوزت التمثيل إلى التأليف... فوضعت قصتك التمثيلية عن: (نابليون والمائة يوم)... وإني لأتساءل عمّا منعك من تقمّص (نابليون) بنفسك في روايتك عل المسرح الخشبي!؟...

لعل المانع هواشتغالك فعلا بتمثيلها على المسرح الآخر... كل هذا كان يُقبَل منك لو انك مسحت الاصباغ عن وجهك آخر النهار، وخلعت الأثواب وأطفأت الأنوار، وصارحت جمهورك بقولك له إن هذا كان تمثيلاً!...

لأن شخصيات التاريخ لا تتكرر، وأن أطماع العُتاة تروى كالأساطير، وأن الزمن قد تغير، وأن الشعوب اليوم لا ينبغى لها أن تجري وراء أوهام السيطرة الكاذبة والتسلط الزائف... بل تسعى إلى حريتها ورفاهيتها في جو من الوئام والتعاون مع جيرانها من بقية الأمم والأجناس...

لوأنك نبذت من أول الأمر فكرة التقليد والتمثيل، وشيدت عملك على اساس جديد من روح العصر وفلسفة الانسانية النافعة للبشر.. لكنت ارتفعت في نظر التاريخ عن مجرد ممثل للأدوار القديمة إلى مصلح إنساني للعالم الحديث.

موسوليني: يدهشني أن تتكلم هكذا أيها الضابط؟ أرى أن اختيارهم لك حارساً لم يأتِ عفواً!.

الحارس: أرجو على كل حال أن يكون في حديثي بعض الفائدة.

موسوليني: أي فائدة؟...ما دامت ها هنا نهايتي؟.

الحارس: هب أنك عدت إلى الحياة.. إلى حياة العمل من جديد.. ماذا تصنع؟

موسوليني.: أصنع كل ما تريد.... ولكن كيف الخروج من هنا؟..

الحارس: حقاً... الخروج من هنا هو المستحيل بعينه... فهذه الجزيرة الصغيرة محروسة ترى بالسفن الحربية من كل الجهات...

موسوليني: إني مع ذلك لم أفقد الأمل بعد... أن (نابليون) سُجِنَن هو الآخر أول مرة في جزيرة (البا) وهي محروسة، واستطاع مع ذلك الهرب...لابد من هربي أنا أيضا هذه المرة كما هرب.

الحارس: يا للأسف.. أنك أيها الممثل لا تستطيع الخروج قيد شعرة عن نطاق (الدور) الذي تقلده وتحاكيه...

موسوليني: ولكن لم أنس ما قلت لي... وسأعمل ما تريد...

الحارس: لن تستطيع... ليس في مقدورك أنت أن تخلق شخصية مستقلة عن شخصيات التاريخ.. لا بد لمثلك من نمونج يسير عليه وثوب بطولة زائف يرتديه.. أنت ممثل وكفى.

موسوليني: سوف ترى ما أصنع إذا كُتِبَت لي العودة إلى العمل...

الحارس: ماذا أنت صانع؟ لا شيء غير الاستمرار في لعب دورك حتى نزول الستار

موسوليني: أين؟...

الحارس: صدقت في هذا... أين؟..لابد لك من مسرح... فأيطاليا اليوم لا تصلح للعبك المعروف... إن الجماهير سوف تستقبلك بالصفير المزرى أو الاهمال المخجِل... ولكن لك شريكا ما زال يلعب على مسرحه... من يدري..ربما رضي أن يعطيك دوراً صغيراً إلى جانبه.

(اصوات صياح في الخارج وطلقات نارية)

موسوليني: ما هذا؟...ماهذا؟..

الحارس: مكانك ولا تتحرك!...

جندي: (يدخل مسرعاً) هبط النازي بالمظلات...

(ضابط نازى يقتحم الحجرة بمدسه)

الحارس: لا داعي لإطلاق النار...

النازي: (لموسوليني) أيها الدوتشى!..

موسوليني:(يبكى وينتحب من الفرح)..إني... إني كنت شاعراً بذلك...

النازي: لقد أمرني الفوهرر أن أضعك تحت حمايتي!...

موسوليني: إني...إني كنتُ وثقاً أن الفوهرر لن ينساني..

الجندي:(همساً) إنه يهرب و لم نرمه بالرصاص؟...

الحارس: (**للجندي وهو يتأمل منظرموسوليني**) أَوَ يريدون منّا أن نقتل هذا المخلوق المسكين!...

الجندي: والاوامر التي لدينا؟...

الحارس: سيدركون فيما بعد أن هذا الرجل لا ينبغى أن يموت موتة جندي، بل ميتة مهرّج منسي فقد الهتاف والتصفيق والدوي...

حماري و مؤتمر الصلح

قال لي حماري مرة:

– صِف لي مؤتمر الصلح لهذه الحرب...

فقلت له، وقد راقني سؤاله، ووددت لواستطعت الجواب:

– كيف أصفه؟...إنه لم ينعقد بعد بالطبع هذا المؤتمر، ولايدري آدمي متى ينعقد... إذا شئت، فلنلجأ إلى عين الخيال، نرى بها ما يجرى فيه وما يفضي اليه... وعين الخيال هذه كعين الماء في الصحراء ا تستمد مادتها من اغوار الرمال... رمال أزمنة الماضي... لذلك أتصور أن يعقد مؤتمر الصلح القادم في (فرساي) مرة أخرى، وفي قاعة المرايا الشهيرة بالذات...

ولكن المباديء التى ستُطرح كأساس للسلام سوف تكون جديدة الوجه... والرجال المجتمعون حول مائدة المفاوضة سوف يُنتَخبون طبقاً لفكرة خاصة...

وفي الحق: إنه عقب إنتهاء الحرب سيشتد الرأي العام لكافة الشعوب المحاربة حول هذا السؤال: مَن الذي يصنع السلام؟.

أَهُم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاءوا بالنصر؟...ألا نخشى أن يكون العمل المنهك والجهد المضني الذي قام به هؤلاء الأبطال يجعلهم بحاجة أن ينالوا قسطهم من الراحة، فيتولى عبء الجهاد الجديد رجال جدد، ممن كانوا أثناء الحرب يدرسون

مشاكل الغد، ويعدون العدة في صمت لبناء صرح السلام العالمي؟..

ثم ألا يُخشى من الرجال المنتصرين إذا تسلموا قيادة الصلح ان تنسيهم حرارة الظفر

أنفسهم، فيحسبون أن واجبهم على مائدة السلم ان يحرزوا لأوطانهم انتصارات أخرى، وبهذا يضيع معنى الفكرة العظمى، التي من أجلها بُذلت الأرواح وسُفِكت الدماء، وهي: (*التعاون الدولب على أساس المساواة والإخاء بين الأمم جمعاء*)؟!

كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفِد الديموقراطيات المنتصرة إلى المؤتمر رجالاً مشبعين بهذه الفكرة العليا...

فمثلا قد توفد حكومة تشرشل رجلا مثل (بيفرج) وحكومة روزفلت رجلا مثل (ديوي) وحكومة ستالين رجلا مثل (لتفينوف) وحكومة برلين رجلا مثل (أوتوشتراسز)... الخ... وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح. ولما كانت مصر مدعوّة بطبيعة الحال إلى تبوء مركزها من هذه المائدة، فقد حق لك يا حماري أن تسأل عمن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمة الخطيرة. إسمح لخيالي أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة، فيتصور أن مندوب مصر هو: العبد الفقير كاتب هذه السطور...ولا تسأل عن السبب؛ بل تعال معي نشاهد ما الذي سيحدث:

لا شك أن خبر تعييني سيُقابَل –كعادتنا في مصر– بالهجوم العنيف من الحسّاد. فيمعنون في تجريدي؛ لا من الصفات المطلوبة في عضو المؤتمر وحدها؛ بل من كافة الصفات الآدمية التي يتمتع بها كل من خلقه الله من ماء وتراب. فيرد كل ذلك الأنصار بما يعرفونه عني من الصفات الحسنة؛

مبالغين فيها... ويأتي يوم السفر فحشد الجموع في مطار ألماظة، حيث تقرر أن أذهب طائراً إلى فرساي.... ويعلو هتاف الجماهير مذكّراً إياي بمطالب البلاد... فألوح إليهم بالمحفظة التي تحوي الوثائق الرسمية والمذكرات التفسيرية التى عليها تقوم المفاوضات، ثم تتحرك بي الطائرة مرتفعة في الجو، وقد تبعتها بعض الطائرات الخاصة مزيَّنة بالأعلام الخضراء، تودعني حتى شاطيء البحر، ثم حطت الطائرات في الدخيلة،

وعبرت طائرتي وحدها إلى أوروبا، وأنا داخلها أفكر في أمر أختياري للمؤتمر وماذا أنا قائل فيه؟!... وأنا لم أدرس بعد أية وثيقة من الوثائق التي بالمحفظة فقد ضاع وقتي في مصر بين مطالعة شتائم الحسّاد في المطار، وأقوال الأنصار في المساء. لكن لماذا لا انتهز فرصة هذه الخلوة في الطيارة وأطالع هذه الأوراق الهامة؟.. ومددت يدي نحوها ولكن ذهني شرد... وتلك ولا شك صفة فات حسّادي أن يذكروها ضمن ما ذكروه عني من صفات... شرد ذهني في أمر وصولي إلى فرنسا – وأين يكون مقامي؟...أفي فندق في فرساى مع بقية أعضاء مؤتمر الصلح.... ولماذا لا أنزل كما يحلو لي في (مونمارتر) مثلاً... بذلك الفندق الذي نزلته منذ نحو عشرين عاماً ولى فيه ذكريات؟... وجعلت أستعرض في رأسي ذكريات يوم كنت أقطن أمام مرقص (الكوليزيوم) المشهور، وأمضى ليليَ أكتب شعراً فرنسياً منثوراً في الحانة المجاورة لملهى (الطاحونة الحمراء). وأنا أحتسي بيرة ستراسورج، وآكل {الكرنب بالسجق،... وأرمق بنات الهوى الجائعات الجالسات على الموائد حولي ينتظرن الدعوات وأنا أقول لهن: ((يا عرائس الشعر إبعدنَ عني ساعة الأكل، فما في جيبي غير فرنكات معدودات ثمن طبقي وحق جمالكن!.)).

في اليوم التالى لوصول طائرتي إلى فرنسا، أُفتُتِحَت أول جلسة من جلسات مؤتمرالسلام في قصر فرساي بحديقته الخضراء ذات النافورات العجيبة، ينبثق منها الماء في أشكال وألوان،كأنه ماسة مُلقاة فوق العشب تشع بالأضواء – وإجتمع الأعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى مستديرة في قاعة (المرايا)... وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه. وجعل يخرج منها الأوراق... وإتخذتُ مكاني بالطبع بين الجالسين... وأردت أن أصنع مثل ما صنعوا.. وإذا أنا لدهشتي ومصيبتي وطامتي أتذكر أني نسيت محفظة وثائقي بالطائرة... والنسيان – قاتله الله صفة أخرى من

صفاتي الممتازة...ما العمل الآن وقد ضيعت – أول ما ضيعت المحفظة التى فيها مطالب بلادي!؟...

لم تدُم ورطتي طويلاً، فقد عزّيت نفسي بقولي: أن المؤتمر في يومه الأول لن يبحث على أي حال في الحالة المصرية... ومن هنا إلى أن يجيء دورها يكون الله تعالى قد فتح عليَّ بالحل الموفّق السعيد. وغرقت في مقعدي الوثير مطمئناً، أستمع إلى المناقشات التمهيدية الاولى بين (بيفردج) و (ديوي) و(لتفينوف) و(شانج كاي شيك) وكلّما أوغلوا في المناقشة فترت قوتي على الإصغاء وتهيأ ذهني كالعادة إلى الانصراف والانطلاق في أجواء أخرى...

وبالفعل... لم يمض غير قليل حتى ألفيت نفسي منهمكاً في حصر عدد المرايا في القاعة، وملاحظة حركات ممثل الصين وهي تنعكس على كل مرآة... ثم طفقت أقول في نفسي: – ليس أنسب من هذه القاعة لأجتماع نسوي... فكثرة المرايا تسر المرأة وتملؤها زهواً وخيلاء..

لكن لماذا تجتمع الدول هنا أيضاً في قاعة المرايا؟..

أخشى أن يكون هذا سبباً من أسباب الزهو والخيلاء الذي كاد يذهب برؤوس بعض ممثلي معاهدة (فرسياي) السابقة!. مضيت في هذه الخواطر دون أن ألتفت إلى ما يجري حولي.. وإذا أنا أتنبّه على صوت المجتمعين يقررون أن يبدأ المؤتمر بسماع رأي الأمم الصغيرة... واتجهت العيون نحوي... وأُعطيَ الكلام لمندوب مصر... يا للكارثة!... جاءك الموت يا تارك... (المحفظة)!... وأصبحت في موقف لا يحسدني عليه حُسّاد ولا عُذّال... أين محفظتي؟.. أين ورقي!... ماذا أصنع أيها الناس؟.. وماذا أقول؟... ولكني وقفت على كل حال رغماً عني وقد مدني اليأس والحرج باتقاد ذهن ليس من شيمتي، فإنطلق لساني يقول:

– أيها السادة الأجلاء... ليس هنا اليوم أمم صغيرة ولا أمم كبيرة، إنما نحن أمة واحدة، وعالم واحد، يجتمع حول هذه المائدة كما يجتمع أفراد الأسرة الواحدة على مائدة العشاء.. عالم واحد وحريات أربع... أليس هذا هو الدستور الجديد لدنيانا الجديدة كما جئنا لِنُشيّد بناءها؟... ولا ريب أننا جميعاً متفقون على تلك المباديء التى أذاعتها الديموقراطيات قُبَيل إنتهاء الحرب، وجعلتها بمثابة الأركان الأربعة لعالمنا الجديد... إنها كما تعلمون:

حرية القول والرأي... حرية العبادة... والتحرر من العوز والفقر... والتحرر من الظلم والاستعباد... إذا تم تحقيق هذه الحريات لكل أمة من الأمم، فقد إستغنَت بها عن أي مطلب خاص تتقدم به إلى هذا المؤتمر... إلا ما تعلق بالتفاصيل

ووسائل التنفيذ؛ فهذا بالضرورة يحتاج إلى البحوث الخاصة التي تُعرض على هذه المائدة... على أني حتى في هذه المباحث والطلبات والتفصيلات التى تتعلق بكل دولة على انفراد، أرى رأياً، وأقترح اقراحاً أرجوأن يحوز موافقة المؤتمر...ذلك الاقتراح هو: أن لايتولّى الدفاع عن مطاب أمة مندوب هذه الأمة؛ بل مندوب أمة أخرى.. وذلك منعاً من طغيان عاطفة القومية والوطنية على الشعور بالمصلحة الانسانية والعالمية...فمثلا يتولى الدفاع عن مصالح أمريكا مندوب الصين وعلى العكس... وتقوم تركيا بالدفاع عن مطالب روسيا... وفرنسا عن ألمانيا... ومصر عن إنجلترا...وهكذا...

وسكتُّ لحظة أمام نظرات مستر ((بيفردج)) وهو يفحصني بعينيه متعجباً.. ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحسن، فإرتسم التفاؤل على شفتيه في صورة ابتسامة رضا شجّعتنى وشجّعت جمع الأعضاء فهتفوا معاً موافقين على هذا الاقراح... ونهض ((ديوي)) فصافح ((شانج كايشك))، وقام ((سراج أوغلو))، فسلّم على

((ليتفينوف))، وانحنى ((شتراسر)) يُحيي ((ديجول))... ودعاني.المؤتمر إلى المضي في الكلام، فقلت:

– أرجو أن يكون مستر (بيفردج) مطمئناً إلى وضع مصير بلاده بين يدي. كما أطمئن أنا إلى وضع مصير بلادي في يده، وليسمح لي أن أوجه التفاته إلى مشاكلنا الاجتماعية التى تحتاج إلى علمه وخبرته وفطنته...برفع مستوى الفلاحين يتطلب مشروعاً ضخماً يُماثل مشروع التأمين الاجتماعى بالنسبة إلى إنجلترا.. وتوطيد مركزنا الاقتصادي، وزيادة الثروة الأهلية، والمحافظة على مستواها؛

سواء بإدخال وسائل إنتاج جديدة أو بتحسين الإنتاج الزراعي والصناعي القائم... كل ذلك موكول إلى بحثك المستفيض وهمّتك العالية، أما مسائلنا الخارجية فأنها ستوضع ولا ريب على الاسس العامة التى تقوم عليها العلاقات الخارجية لكافة الدول، فإنه تحت ضوء هذا المبدأ:

((عالم واحد، وحريات أربع)) سوف تحل كثير من المشاكل و إن في صيحة الديموقراطيات الدوية بأن ((في الإمكان القضاء على القوة كوسيلة للأعمال السياسة إذا قوبلت ووجهت بقوة أخرى أعظم منها تقوم عل دعائم إقتصادية وخلقية، ويعزّزها بوليس مشترك، يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة التي تمكنها من الاعتداء على أية دولة مجاورة لها في أي مكان في العا لم))... إلخ.. هذه الصيحة ستمحو ولا شك كل الصعوبات التى وقفت في سبيل الصداقة بين الشعوب القوية والضعيفة...

هذا فيما يختص ببلادي، وقد وضعته بين يديك... اما فيما يختص ببلادك فأمره سهل، ولا شك أنك قد وضعت فيه البحوث والدراسات، وملأت مذكراتك ووثائقك مشروعات. وليس لي إلّا أن أمد يدي وأقول لك يا مستر ((بيفردج)) سلمني محفظتك...!

حماري وحزبه

دار بيني وبين حماري يوماً هذا الحوار:

الحمار: أريد أن ألقي عليك سؤالاً شخصياً... أتاذن لي؟...

الحكيم: العفو... تفضل!...

الحمار: ألم تفكر في الإنضمام إلى حزب من الأحزاب؟..

الحكيم: لماذا؟... القهوة التي أجلس فيها الآن مريحة جداً وتعجبني للغاية...ولا أريد بها بديلا...

الحمار: خطرت لي فكرة جديدة طريفة...

الحكيم: خيراً...

ما رأيك لو ألفّنا نحن حزباً؟...

الحمار: عاملاً.... إنك تعلن إليَّ في كل مناسبة إعجابك فيَّ وبفصيلتي من الحمير؛ لقوة مراسنا وطول صبرنا وشدة جَلَدنا على العمل.. فما قولك لو شرعنا في انتخاب نحو ثلاثين حمارا من الطراز الاول، نؤلف منها الحزب؟...

الحكيم: حزب من الحمير؟...

الحمار: ولمَ لا؟..

الحكيم: أَوَ تظن أنك أحدثت جديداً في السياسة؟...

الحمار: على كل حال الجديد هو رئيس الحزب الذي يلوّن الأعضاء بلونه

الحكيم: ومن سترشّح للرياسة؟...

الحمار: أرشحك انت بالطبع..

الحكيم: أتظن انه سيوجد إنسجام بيني و بين الأعضاء؟..

الحمار:لا شك عندي في ذلك..إنك خير مَن ينسجم مع هؤلاء الأعضاء.

الحكيم: أهذا مدح أم ذم؟!..

ما علينا أنا أتشرّف بإسناد هذه الرياسة إلى شخصي المتواضع، ولكني لا يسعني إلّا الاعتذار.. فالمسؤلية جسيمة... وانا أفضل أن أكون عضواً بسيطاً في هذا الحزب..

من رأيي ترشيحك أنت للرياسة.. **الحمار**: أنا لا أُصلح..

الحكيم: لِمَ لا؟... الانسجام مفقود بينك وبين الحمير؟...

الحمار: بالضبط...

الحكيم: وغير مفقود بيني وبين حضراتهم؟!..

الحمار: بالضبط لأن مسألة الرياسة – كما لا يُخفى – دقيقة جداً.. تولد دائماً مشكلات وعقبات وخصومات... وإنك لتعلم أن كل مشروع نافع لايفسده غير التنافس على الرياسة... وكل إتّفاق لا يقف في سبيله الا الخلاف على الرياسة... *فإذا اردت نجاحاً لمشروعنا هذا*؛ *فليكن الرئيس من الخارج*...

الحكيم: فهمت... والمباديء....

الحمار: ليس الآن وقت البحث فيها... المهم هو تشكيل الحزب، وانتخاب الرئيس، واختيار المكان المناسب أو النادي الملائم.

الحكيم: عجباً... حتى أنت يا...

الحمار: ألستَ معي؟...

الحكيم: أبداً... أبداً... ما الذي صنعناه إذن؟...

الحمار: ماذا كنت تريد أن نصنع أكثر من ذلك؟..

الحكيم: أشخاص، ومكان، وناد... إني يا سيدي- كما تعلم.. لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج... ولست ساحر الحديث، ولا ظريف المجلس، ولا أحب أن أكون من ذوي الجاه.. كل ما عندي قلم لا أرضى أن أسّخره في هدم الأشخاص لمجرد الهدم، ولا أن أستخدمه لبناء أشخاص طمعاً في الغنم... إنما هو خادم بالمجّان؛ لأي فكرة كبيرة أدافع عنها... تلك هي كل مهمتي وكل مطلبي، والباقي لا وزن له عندي...

الحمار: ما هذا الكلام؟ تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة ولا تريد الهدم، ولا الغنم، ولا المال، ولا الجاه، ولا..الخ.. تريد أن تعلن ذلك حتى يقولوا عنا: إنه حقيقة حزب حمير

الحكيم: وا أسفاه.... كنتُ أُحسِن الظن بآرائك...

الحمار: آرائي كلها صائبة... ما من مرة أوحيت إليك برأي خاطيء....أنسيت يوم جعلنا نُحصي ما نشرتَ من أفكار؛ فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسي أنا.. وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت من رأسك انت؟..

الحكيم: هس... لئلا يسمعك أحد.

الحمار: لا تخف... أنا أخفض صوتي... *ولكن إعترف أن آرائي التي أوحيت اليك ثبتت صلاحها في كل حين*...

الحكيم: لا أذكر أنه ثبت صلاح أي رأي من آرائنا – آرائك – إضرب لي مثلاً واحداً...

الحمار: ما أضعف ذاكرتك.. *خُذ مثلاً رأيي الأخير الخاص بتعدد الزوجات*...

الحكيم: (يا ساتر!...) ألم تر كيف قامت قيامة النساء في كل مكان على هذا الرأي..... وقُلنَ: ***إنَّه لا يصدر حقاً إلا من الحمار***..

الحمار: الحمدلله!... أرأيت؟... إن آرائي *لها طابع خاص* لا يمكن أن يُخفى..

الحكيم: لهفي على ذلك الفيلسوف الإنجليزى الذي قرأت خبره آخيراً في الصحف!...

الحمار: حقاً... ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه؟...

انه أعلن أن عدد االنساء في انجلترا يزيد مليونين على عدد الرجال... ونادى هو الآخر بضرورة التعدد... وأبدى إستعداده هو بالذات للاقتران بست زوجات؟!...

الحكيم: الحق أن رأي هذا الإنجليزى أدهشني وأعاد إلى نفسي بعض الثقة في حصافة رأيك ورجاحة عقلك..

الحمار: مَن يدري؟... ربما كان لي إبن عم نشيط، نزح إلى بلاد الإنجليز هو الذي أوحى بهذا الرأي إلى ذلك الفيلسوف؟

الحكيم: لا أظن الحمير تستطيع أن تعيش في جو أنجلترا...

الحمار:وكيف إذن يفكر الفلاسفة هناك هذا التفكير السليم؟!...

الحكيم: لستُ أدري...

الحمار: يسرني على كل حال أن نكون متفقين في الرأي، أنا وهذا الفيلسوف الإنجليزي...

الحكيم: وإنا يُدهشني أني لم أسمع حتى الآن أن نساء إنجلترا أقمن القيامة على زميلك الفيلسوف هذا المطالب بست زوجات

الحمار: إني لم أذهب إلى إنجلترا ولا أعرف عنها شيئاً.. ولكن ربما كانت النساء هناك غير مثقفات...

الحكيم: غير مثقفات؟.. نساء إنجلترا...وفيهن أعضاء في البرلمان؟!.

الحمار: عجباً... إذن لماذا لم ينهضنَ على الأقل إلى البرلمان صائحات ضد هذا الرجل؟!...

الحكيم: أظن أن النساء هناك لايصحن لأنهن يعملن...

الحمار: أَوَ تركْنَ إذن زميلي الفيلسوف يقول ما يريد؟!!...

الحكيم: طبعاً... وهل كنت ستنتظر أن يضعنَ في فمه اللجام كما يتمنى نساؤنا أن يفعلن بك وبي؟..

الحمار: أُريد أن أسألك سؤالاً محيراً؟.. بماذا تفسّر سعة صدر المرأة الإنجليزية مثلاً، وضيق صدر المرأة المصرية؟...

ما السر في أن نساء إنجلترا لم يغضبن عندما قال ذلك الكاتب: إنه يريد التزوّج بست زوجات، وغضب نساؤنا عندما قلنا بزواج أربع فقط؟....هل المصرية تقدس حقوق المرأة وتحرص على حريتها أكثر من أختها الإنجليزية؟..

الحكيم: سعة الصدر وضيقه.. ليست ظاهرة مقصورة على المراة وحدها، ولكنها ظاهرة شاملة تلاحظ في حياة كل شعب، تبعاً لدرجة عراقته في الحرية والحضارة والقوة؛ فالشعوب الحرة القوية هي في الغالب اوسع الشعوب صدراً وعقلاً...

إن مسالة الزي الأوربي مثلاً أو لباس الرأس لم تصادف في اليابان أي صعوبة أو إشكال... وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة، والوطنية اليابانية العريقة؛ لم نسمع يابانياً ذكر كلمة ((القومية)) او الوطنية، وهو يرتدي الزي الأوربي، لأنه لم يخطر قط بباله وهو يلبس (القبعة) أنه سيخلع (قوميته)...

أما الشعوب الضعيفة فتتوهم دائماً أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتنا ستخلع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو برداء؛

فهي تنفعل وترتعد وترتاع لمجرد المظاهر والالفاظ والكلمات

الحمار: لا بد لهذا من علاج...ما علاج ذلك؟...

الحكيم: حرية الكلام حتى يألف الناس الألفاظ ولا يرتاعوا من الكلمات... وحرية

الفكر والعمل والتصرفات حتى يعتاد كل فرد إحترام رأي الآخر وعمله وتصرفه دون أن يكون مضطراً إلى اتباعه... الحرية هي المنبع الصافي لسعة الصدر والعقل... الحرية هي الطريق نحو القوة.. الحرية هي انتصار الإنسان على نفسه وعلى كل سخافة انسانية... الحرية هي دواء كل شيء.

الحمار: إذن فمن واجبنا ان نتكلم...

الحكيم: دائماً... حتى يسقط القلم من بين أصابعنا الميتة...

الحمار: لا تقُل إذن أن آرائي دائما خرقاء...

الحكيم: ان الخرق أو الهراء الذي يخرج من أفواهنا فيه أيضاً بعض النفع للناس...انه يجعلهم يبتسمون سخرية منا على الأقل... وإذا إستطاعوا أن يسخروا في إبتسامة جميلة لا يعلوها زَبَد الغضب، فقد ساروا خطوة نحو الحرية...

الحمار: كنت تريد لحزبنا مباديء... ها هو ذا مبدأعظيم!...

الحكيم: الحرية الاجتماعية؟...

الحمار: نعم.. ما قولك؟...

الحكيم: *لا مانع عندي الآن من تأليف الحزب... إجمع الحمير*!...

الحمار: هنا صعوبة بدت لي الآن!...

الحكيم: ما هي؟...

هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذي يعترف بأنه حمار؟..

الحكيم: إذن لم يحن الأوان لتأليف هذا الحزب...

حماري والذهب

رأيت حماري ذات يوم مفكراً مهموماً.. فجلست بحواره صامتا مُحترِما ما هو فيه... إلى أن أحس وجودي. فرفع رأسه نحوي.. وجرى بيننا هذا الحديث:

الحمار: وأخيراً؟...

الحكيم: وأخيراً ماذا؟...

الحمار: مستقبلي... ألم تفكر في مستقبلي؟..

الحكيم: عجباً!... لأول مرة أسمع حماراً يتحدث في مستقبله؛...

الحمار: ما وجه العجب؟... ألست مخلوقاً حياً يعيش خاضعاً لقانون الزمن؟... أليس لي ماض وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات والكائنات؟

لقد عشت معك حتى الآن عارياً...لا (سرج) ذهب...ولا (رشمة) فضة.. ولا (برذعة) مرصّعة...ولا...

الحكيم: شيء جميل...أهذا ما يشغلك الآن؟!...

الحمار: هذا ما يشغل اليوم كل إنسان.. إن الناس كلها من حولنا تفكر في الذهب.. وتعيش للذهب.. وتتنفس بالذهب... وأنا وأنت قاعدان نُنَظّر إلى القوم من عِلٍ متدثرين في أسمال أفكارنا وأطمار فلسفتنا...

الحكيم: إسمع ايها الحمار.. فرغنا من آرائك السياسية... ومن مباديء حزب الحمير الذي أشرت بتأليفه... واليوم تريد أن تفتح لي باب أطماع جديدة؟!... **الحمار**: إنّي أفتح لك باب أعمال.. وما دمت أنا الذي يفكر لك....

الحكيم: فكر لي في بشيء نافع من فضلك!...

الحمار: أنفع من الذهب؟... يا للعجب!... هنالك لحظات أُسأل فيها أنا الحمار أم...

الحكيم: الزم أدبك... لقد بدأتُ أُضيق بك ذرعاً.. وأشعر أننا أصبحنا غير متفقين في كثير من الأفكار والمشارب والميول...

الحمار: بل أنا الذي ضقت وضجرت و(غُلُبتْ)..

الحكيم: فلنفترق إذن... ما الذي يرغمنا على هذه الحياة المشتركة؟.. وعلى هذه الصحبة التي لا أجني منها غير سوء السمعة!.... إذهب إذا شئت، وإبحث لك عن صاحب من ذوي المال – وما أكثرهم اليوم – يغطي عُريَك المزعوم بالذهب والفضة. وسنرى بعد ذلك هل شعرت بالدفء حقاً وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين

الحمار: وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عاري الظهر؟...

الحكيم: بالطبع...لوكان لك قلب يعرف حرارة الإيمان....

الحمار: يا لهذه الكلمات!... إنك تكسوني بالكلمات.... وتغذيني بالكلمات... ولا أجد شيئاً عندك غير كلمات...

الحكيم: ولن تجد عندي شيئاً غيرها...

الحمار: من سوء حظي!..

الحكيم: حقاً... ربما كان ذلك من سوء حظك، لأنك حمار.

الحمار: الزم أدبك.. يكفي أني تحملت عشرتك طول هذا الزمن، وأنت لا يتحملك

أحد... ولكن آن الأوان أن أتركك الآن لوحدتك...

لتأكل وتشرب كما تشاء من أفكارك وكلماتك...

الحكيم: إسمع... إني لا أطيق أحداً يحقّر الأفكار والكلمااات...إن الكلمات هي التي شيدت العالم... *إن محمداً لم ينشر الإسلام بالذهب؛ بل بالكلمات*...

وإن عيسى لم يُنشيء المسيحية بالمال؛ بل بالكلمات... الكلمات الصادقة والأفكار العالية، والمباديء العظيمة هي وحدها التي قادت الانسان في كل أطوار وجوده، وبنت الأمم والشعوب في كل أدوار تاريخها...

ما من حركة وطنية أو قومية أوإنسانية قامت أول أمرها على شيء غير المباديء والكلمات... وعندما يظهر الذهب آخر الأمر ببريقه ورنينه، فإعلم أن أوان الإنهيار قد آن... وأن هذا البريق سوف يُذيب المباديء بأشعته الساحرة... وأن هذا الرنين سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع الكلمات...

الحمار: تريد من ذلك أن تقول: أن الذهب عدو المباديء؟!...

الحكيم: بلا شك؛ لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ... مبدأ خطر طاغٍ متألّه... يُنسي الناس كل المباديء الأخرى الحقيقية السامية النبيلة...

انظر إلى مجتمعنا اليوم، وقُل لي ما هو المبدأ الغالب المسيطر على كل النفوس...

لقد قلتها أنت نفسك الساعة: إنه الذهب... لقد تحكّم حتى أصبح هو القياس لقيم الرجال... ألا تسمع أن كل رجل كفء يتباهى بأن دخله من الشركات كذا ألف؟!...

فإذا طُلِبَ لواجب قومي وازنَ في الحال بين خسارته المالية هنا وربحه المالي هناك.. وجاراه المجتمع على حسابه المادي صائحاً:

(لا مصلحة لفلان في أداء هذا العمل) لأنه سيخسر بعض موارده من كيت

وكيت)) أما أن يُقام وزن للواجب المعنوي في ذاته، فهو أمر لم يعد في بال أحد.. المعنويات والمثل العليا فقدت قيمتها في سوق الذهب؛ حتى الأطباء نسوا أحياناً واجهم الحقيقي... فأصبح أغلبهم صيارف نقود، يفخر كل منهم بدخله السنوي، ولا يفخر بمثله الانساني... والزواج أصبح هو الآخر علاقة مكسب وخسارة في ميدان المال... فإذا تزوج أحدهم تساءل المجتمع من الفور عما تملك العروس؛ لأن هذا هو المبدأ الذي تقوم عليه الآن هذه الشركة (المقدسة)!...

ورجال العلم تركوا علمهم ونظروا إلى الدرجات والمرتبات؛ فلن تجد في بلادنا عالماً منكباً على عمله تحت (المكرسكوب) ليل نهارليستكشف جديداً دون أن يكون له مطمع غير أفكاره العلمية ونجاحها،

وخدمة الانسانية لذاتها؛ لأن هذه الأفكار والمباديء ذابت في جو هذا المجتمع الذهبي... وإنصهرت هذه الكلمة من جديد في قالب من ذهب..

فإذا الناس ينقلبون تجاراً... كل فرد في الأمة يريد أن يكون تاجراً؛ بل أن لكل شخص اليوم عملين: التجارة وعمل آخر.. كل إنسان الآن تاجر إلى جانب عمله الظاهر... لأن الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقلوبهم إلى حد أنساهم أنسفهم ومدلول لغتهم... فغدا للناس قاموس جديد كل كلماته: الربح...

الربح...الربح...والمال...المال...المال...والثراء... الثراء... الثراء...

الحمار: إذا كان هذا هو قانون العصر، فلماذا تريد مني أن أخرج على القانون؟... فأنا كائن عصري... من واجبي أن أنطوي تحت لواء (المثل الاعلى) المسيطر في زماني...وما دامت الأفكار والكلمات قد ذهبت بدعتها من عصرنا العملي.. فانا أخلع عن نفسي تلك البِدَع القديمة...

الحكيم: أيها الحمار (العصري) إن الأفكار والمباديء ليست من البدع القديمة في كافة الشعوب... انظر حولك تجد شعوباً لم تزل تبذل دماءها سخية من أجل أفكار ومباديء...

ماهو الدافع الذي يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناضر إلى الجود بأرواحه ودمائه؟... أهنالك دافع آخر غير بضع كلمات؟!...نعم... بضع كلمات آمن بها فدفع ثمنها دمه الغالي...

كلا... إن الافكار والمباديء ليست من البدع القديمة إلا في نظرنا نحن..

إن الكلمات الصادقة العظيمة بخير... وهي لم تزل حافظة قوتها في كثير من الامم والشعوب... وهي ما برحت جديرة أن تُبذَل في سبيلها المهَج والأرواح، قديرة على أن تثير في القلوب حب التضحية بغير ثمن...

الحمار: إنك لتدهشني... كيف استطاع عمر واحد أن يجمع هذا التناقض؟... دماء تسيل في مجرى...وذهب يجري في مجرى آخر؟!...

الحكيم: لقد اجتمع الضدان في كل زمان...

منذ فجر الخليقة والعظمة تسير إلى جانب الحقارة... والنمو إلى جانب التدهور... والعلو إلى جاب الحضيض...

ولكن العبرة: أيّ الفريقين تختار لنفسك ولأمتك؟.

الحمار: إذاسألتني أن أختار لنفسي فأني..

الحكيم: انطق...

الحمار: دعني أفكر.. فإنك تعلم أني لا أعطيك ثمرة تفكيري إلا بعد تروٍ وتأمّل.

الحكيم: مجرد التردد في الأختيار يجعلني أحكم عليك بانك حماري...

الحمار: أتظن أني وحدي؟!... إطرح سؤالك على الناس... وخيّرهم بين المال والمباديء...ثم إحصِ بنفسك عدد المترددين.

الحكيم: آه... والله ((غلب حماري))!...

حماري والسياسة

جاءني حماري أخيراً ثائراً يزبد وينهق ويرعد قائلا:

– اسمع... إني مصمم هذه المرة تصميماً اكيداً، ومصر اصراراً تاماً؛ فإياك ان تثبط عزيمتي أوتحاول منعي، أو تتدخل في شؤوني، أو تعرقل مشرعاتي أو تفسد تفكيري، أو تبرد حماستي...أو تكتم شعوري، اوتطفيء لهيبي...أو...

– سبحان الله... سبحان الله... ماهو الموضوع أولا؟!...

– الموضوع يا سيد أني قررت نهائياً الاشتغال بالسياسة

– على الرحب والسعه... مَن قال لك إنّي معارض؟...

– أنت موافق إذن على دخولي في معترك السياسة؟...

– هذا هوعين العقل.. الواقع أنها كانت سُبّة أن يجلس أمثالنا هكذا ينظرون إلى احداث بلادهم ولا يحركون رأساً ولا ذنباً.

نحن الذين نشأنا في هذا البلد، ونعمنا بخيره وخميره، ورعينا برسيمه ونجيله، وشربنا من ماء نيله... كان حتماً علينا أن يكون لنا يد في مصيره...ونحن من أصحاب الفكر الراجح، ومن قادة الرأي الناضج.

فنظرت إلى حماري ملياً وقلت:

– أنت تتحدث عن نفسك بالطبع!..

فلم يعن بالالتفات إلى ملاحظتي ومضى يقول:

– إنها لضريبة يجب أن يؤديها أمثالنا، فالضرائب الواجب أداؤها للدوله ليست مجرد المال الذي يُدفَع للمحصلين، ولكنها المواهب وثمراتها، والقرائح وآثارها، وان نتاج الأذهان لا يقل عن نتاج الألبان ثروة للأمة، وأنا كما تعلم لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أؤدي ضريبتي من نتاج ضرعي.

– مفهوم.

– إذن كان يجب أن أساهم في الحركة السياسة بنصيب... لذلك قررت الانضمام إلى حزب من الأحزاب.

– هل وقع اختيارك على حزب من الاحزاب بالذات؟...

– لا.. لم يحدث بعد.. وهذا بالضبط ما جئت أستشيرك فيه... على أنه توجد صعوبة قد تقف في سبيلي... يحسن بي أن أذكرك بها حتى تكون على بينة من الأمر قبل الإدلاء بمشورتك.. تلك الصعوبة التي تخيفني تتعلق بشخصي.. أعني: هل تظن أني سأجد أحزاباً تقبل أن ينضم اليها حمير.

– إطمئن من هذه الجهة؛ ولا يكن عندك خوف!...

فلمع الفرح والأمل من عيني حماري وقال:

– إذن قد ذللت الصعوبة... لندخل في جوهر الموضوع.... ما هو في نظرك الحزب الذي يتفق مع مبادئي؟...

– أحب أولا أن أتشرف بمعرفة مبادئك...

– مبادئي معروفة: العمل لمصلحة الغير وإنكار المصلحة الشخصية... ذلك هو المأثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهرنا على الأرض... لقد عملنا وكدحنا وجهدنا لما فيه خير الآخرين.. ولم نسأل لأنفسنا أكثر مما نستحق بعرق الجبين..

فلم يُعرف عنا أننا سرقنا كما تسرق القطط... ولا نعمنا بالترف والدلال كما تنعم الخيول... ولا طمعنا في أن نُعزَّز ونُكرَّم ونُلقم السكر في أفواهنا ولا نعمل شيئا؛ بل

حياتنا هي العمل للغير... العمل للنفع العام... ولا شيء غيرذلك... حتى لقد جرى الناس على أن ينعتوا من يكد ويجد بأنه (حمار شغل). فمبادؤنا هي كما ترى أن ننتج وننتج، ولا نبتغي من وراء إنتاجنا منفعة لذاتنا.

– تلك بالطبع مبادؤك بإعتبارك حماراً.. ولكنك تريد على ما فهمت الانضمام إلى حزب من أحزاب البشر؟...

– نعم... وهل يقتضي ذلك أن أغيّر هذه المباديء؟!...

– تغيير طفيف.. كلمة واحدة ضعها خلف عبارتك ليكون مبدؤك سليماً في عرف البشر...ضع كلمة (لا) أي: لا إنتاج للغير، ولا إنكار للذات.

– عجباً.. وما فائدة الحزب السياسي إذن؟...

– فائدته نفع ذاته... أليست هذه فائدة

– والآخرين؟...

– أي آخرين؟...

– الفصيلة، أو الجنس أو الأمة، أو الدولة أوغير ذلك من الأسماء التي تُطلَق على المجموع؟

– لا تنس إننا نتكلم الآن في محيط السياسة...والسياسة هي اللباقة أو المهارة، أو الخفة أوالبراعة... أوالكياسة التى تستطيع بها ان تسحب خاتم السلطة من إصبع منافسك وتضمه في إصبعك إلى أن يغافلك المنافس وينتهز منك فرصة فيسحب بدوره الخاتم من أصبعك ويضعه في إصبعه... وهكذا دواليك... حتى يتعب أحدكما من هذه اللعبة اللذيذة، وقلّما يتعب.. فالمسألة إذن لا علاقة لها بإنتاج ولا بعدم إنتاج.

– والشعب؟...أهو قانع بمجرد المشاهدة؟..

– ومن قال لك أنه قانع؟.. لقد دخل هوأيضاً حلبة اللعب... إن الساسة علّموه كيف يتذوّق تلك اللعبة فأصبح أكثر منهم تهافتاً عليها واهتماما بها... وأشد شوقاً

إلى رؤية الخاتم ينتقل من يد إلى يد... ولا يطيق ان يصبر وقتا طويلاً عليه وهو في إصبع واحدة. فإن المقامرين الذين لا يطيقون رؤية كرة (الروليت) تقف دائماً على رقم واحد بلا تغيير... فهم يهللون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد... ويفرح الرابح الفرح والترح بالتناوب، وهكذا دواليك...

– والشعب مسرور بذلك؟...

– كل السرور... ولقد آنست منذ زمن الحكومات هذا الميل فيه... فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات وتيسير إشتراك كل فرد في هذه اللعبة، فجرت على سنّة بديعة: وهي أن تاتي كل الحكومات ومعها برلمانها وانتخاباتها أي (عدة الروليت) الخاصة بها، فيُنصَب المولد وتزدحم الجموع، وتنتقل النقود من جيب

إلى جيب ويعلو الصياح من فم إلى فم وتمد الموالد وتُقام الولائم... ويكثر الطعام والشراب، والبذل والعطاء، ويُغمَر في جو صاخب كجو الأعياد ردحاً من الزمن يُنسيه شقاءه ويُلهيه عن مصيره.

– هذا شيء جميل..

– جداً... على إن هذا كله كان يحدث في الماضي...أما الآن فنحن امام ظاهرة جديدة.. إن ثراء الحرب قد غيّر عقلية الناس فيما يظهر... ما من أحد يريد أن يخسر.... لذلك كثر اللعب في هذا الوقت على رقمين أو كثر. هذا بين اللاعبين على مائدة السياسة من أعضاء البرلمانات والأحزاب.. وقد انتقلت العدوى إلى الشعب فجعل هوالآخرمبدأه ذلك المثل اشعبي القديم (**مَن تزوّج أمّي قلتُ له عَمّي**) والأم هنا هي الحكومة أوالسلطة.. لذلك لا نستغرب خروج الناس أفواجاً من الحزب الذي خلا من السلطان، ليدخلوا افواجاً في الحزب الذي لمع فيه الصولجان، كأنهم يخرجون من دار (سينما) تعطلت فيها الرواية، ليدخلوا المسرح الآخر الذي أُضيء

بأنوار الرواية الجديدة؛ ما دام هذ اهو الإتجاه العام فنحن سائرون بدون أي مجهود نحو توحيد الأحزاب.

– إذن فأنت لا ترى في أن انضم إلى حزب بالذات؟...

– انضم كما تشاء، ولكن على المبدأ الشعبي:

– (مَن تزوَّج أمي...).

– بالضبط.

– ولكن....

– لا تقل ولكن... ولا تكن حماراً...إن عناد الحمير وصلابة رؤوسها لا تنفع في السياسة.. واليوم كل شيء لين مرن، لا في المباديء وحدها، ولا في المحيط السياسي وحده، بل في كل محيط.. حتى بين الموظفين المسؤولين عن تنفيذ القوانين... ألم تسمع بخبر ذلك المأمور الذي حبس مجرماً من مجرمي التموين طبقاً للقانون، فاتصل به أحد ذوي النفوذ وأمره أن يفرج عنه فوراً... فأخرجه من الحبس بعد الصفع والإهانة... وأجلسه في مكتبه... ووقف هو بين يديه قائلاً؛ (والله لايصح أن تنصرف عنّا قبل أن تشرب القهوة!...)

– يا للعجب!...

– لباقة...اليست لباقة؟...

– وا أسفاه!... إني لا أملك هذه اللباقة...

– إذن... إجلس حيث أنت.. ولاتطمع في الإشتغال بسياسة أو إدارة!..

– بيني وبينك... الا تظن ان هذا الحال في مجتمعكم- يجب ان يصلّح؟

– من فضلك لا تُلقِ عليَّ مسألة عويصة... لأن ذلك سيجرّنا إلى التساؤل:

من الذي يُصلح؟... أهوالمجتمع الذي يُصلح الحكومة، أم الحكومة هي التي تُصلح المجتمع؟ وهذا لا أُجيب عنه إلا إذا أجبتني أنت: هل البيضة من ألفرخة أوالفرخة من البيضة؟...

– دعك من السفسطة...من يدري؟ ربما استطعت أنا أن أُصلح..إن انشغالي بالسياسة على مبادئي قد يعطي على كل حال خير مثل من امثلة...

– من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة الجديرة بحمار... هذا ما سيقال عنك وعن مبادئك...

– فليقولوا ما شاءوا...

– إني أعلم منذ الآن ما سوف يحدث.. فإجلس حيث أنت، واسمع نصيحتي!.. إنك لن تؤثر فيهم بمبادئك.. ولكنهم هم الذين سيؤثرون فيك بمبادئهم... ولن يمضي وقت طويل حتى ترى أنك أنت لم تعد حماراً.

حماري والطالبة

قال حماري يوماً: إنه يلحظ أني بدأت أتبرّم بمؤنة أكله وهو لايعمل شيئاً غير إبداء الآراء، فاقرح عليَّ أن يقوم لي بوظيفة ((السكرتير)) الخاص أحياناً... فقبلت... وجاءني أخيراً يقول: إن بالباب فتاة من طالبات الجامعة تريد مقابلتي.

فقلت له: إن فكرتي عن الجامعة المصرية وطلبتها وطالباتها غامضة كل الغموض. فأنا قد تخرجت في مدرسة الحقوق القديمة، قبل أن تنشأ الجامعة فلم أحضر عهود النظم الجامعية في بلادنا، ولم أشهد ذلك الحدث الخطير في تاريخ الشرق: وهو جلوس الفتى والفتاة معاً تحت شجرة العلم المورقة...فأجابني بأنها إذن فرصة سانحة لمعرفة ما لم أعرف...

فقلت له بعد تردد: (أدخل الطالبة على شرط...) فسأل عن الشرط. فأجبته: هو أن لايتدخل في حديثي معها، لابصفته حماراً، ولا سكرتيراً؛ بل يتنحى جانباً ولا ينبس بحرف خشية أن يلفظ كلمة من كلماته لي تُصَغّرني في عينيها... وكان شهماً فقبل... ومضى فأحضر الفتاة وأجلسها أمامي، وقبع هو في ركن بعيد... وتركنا نتبادل هذا الحديث:

قلت لها: – إسمحي لي أولا أن أدعوك حواء...

فقالت من فورها: ولكن إسمى الحقيقي...

– لا شأن لي بإسمك الحقيقي... أنت في نظري الآن تمثلين كل طالبات الجامعة، وعلى هذاالاعتبارأوجه إليك الكلام.. لقد دخلتي يا حواء جنة العلم لتقطفي إلى

جاب الرجل أشهى ثمار الفكر!..

– أَوَ لسنا مساويات للرجل في كل شيء؟...

– لست أدري... انما الذي أريد أن تعرفيه هو: أنك حواء في جنة...

– الأورمان بالجيزة..!

– إني لا أمزح الآن؛ لأن كلامي يرمي إلى مغزى يجب إدراكه حتى لا يكرر وقوعك في عين الغلطة...

– اي غلطة؟...

– إني أخشى دائماً دخول حواء الجنة.. أي جنة!....

– إن الجنة لا تسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء... لا توجد جنة بغير حواء!...

– هذا صحيح للأسف.. لكن...

– قل لي بالصراحة: ألا تأسف على أنك لم تحضر عهد الجامعة الحالي؟...

– يُخيَّل اليَّ إني لو كنت حضرت جامعة اليوم لما نجحت ولا أفلحت....

– ما معنى ذلك؟...

– لا تسأليني إيضاحاً ولا بياناً.. افهمي هذا القول على الوجه الذي يروق لك!!..

– حذار أن تشك في مقدار فهمي!... إني أفهم جيداً...

– ذلك أخشى ما كنتُ أخشاه... لا تخرّج الجامعة مثيلات لـ (باحثة البادية) ولا قرينات لـ (مَي)، ولكنها تُخرّج شيطانات صغيرات قد أكسبهن الخروج إلى المجتمع، والاختلاط بالرجال، والاتصال بذوي الأفهام شيئاً كثيراً من الفطنة والذكاء

– ولماذا تخشى ذلك؟...

– لأن الذكاء سلاح خطر لا ينبغي أن يوضع في يدي إمرأة إلا بعد إعداد روحي طويل ...

– ولماذا لا تقول ذلك أيضاً بالنسبة إلى الرجل؟...

– الرجل.. الرجل.. دائماً الرجل.. إتركي الرجل وشأنه.. فنحن الآن نتكلم في المرأة

– آه...يا للمرأة... إذا أُبتليت بالجهل فهي مخلوق تافه... وإذا مُنحَت الذكاء فهي مخلوق خطر....

– من غيرشك تأمّلي أمر حواء الأخرى الحقيقية.. لقد كفى أن يلقنها (إبليس) شيئاً من الإدراك، وأن يُلقى في روعها قبساً من الذكاء؛ لتُخرج على الفورآدم من جنة عدن!...

– لست أدري ماذا أجيب دفعاً لهذا الايهام الشنيع... إنكم معشر الرجال تستخدمون كل ذكائكم في إلقاء مسؤوليه الأخطاء العظمى على كاهل المرأة!...

– هذا على كل حال استخدام لاضرر فيه...

– لاضرر في أن تلصق بنا نحن المخازي والأباطيل!... أرأيتم كيف تضعون دائماً بين مشاعركم ومشاعرنا، ومصالحكم ومصالحنا،

وشؤونكم وشؤوننا هذا السد المنيع.. حقاً.. ان المرأة والرجل مخلوقان مختلفان منفصلان.. وأنتم الذين أردتم ذلك.. – الطبيعة هي التي أرادت ذلك.. ولكن المرأة لاتريد أن تكف عن تكذيب الطبيعة والصراخ في وجهها:

((لافاصل بيني وبين الرجل.. إني مساوية للرجل في كل شيء...

– لا تتهموا الطبيعة أيضاً ظلماً وباطلاً.. إنها هي التي شاءت ألّا يكون بيننا فرق من تلك الفروق التي تصطنعونها... تذكّر يوم كنّا في الجنة.. أعني حواء الأخرى وآدم الآخر... ماذا كانا يعملان طول النهار؟... ماذا كانت تصنع حواء؟... أظنك لن تزعم انها كانت تصنع لآدم صينية بطاطس في الفرن، لقد كانا متساويين في كل شيء.. في نوع الحياة، في نوع الواجبات والحقوق، والمشاغل والأفكار...كل منهما كان يقطف فاكهته بنفسه لنفسه.... وكل منهما كان يفعل ما يفعل الآخر، كأنهما

زميلان ندّان... أني اتحداك الآن ان تذكر لي عملاً واحداً انفردت به حواء دون آدم ايام كانا في الجنة.. تكلم.. لماذا لزمت الصمت؟..اذكر مثلاً واحداً فقط؟.

– سبحان الله!... كيف تريدين مني أن أعرف نظام الحياة الزوجية في الجنة؟... من أراني كيف كان توزيع العمل في أسرة آدم وزوجته؟ تلك مسألة فيما أظن لا يعرفها غيرهما... ومن يدري... ربما كانت حواء هي التي كان عليها هناك أن تقطف الفاكهة وتغسلها جيداً في نهر الكوثر وتعد المائدة لآدم...

– أبداً.. أبداً.. أبداً.. من أين أتيت بهذا الكلام.. هذا خيالك بإعتبارك رجلاً!.

– إني أتحداكِ أن تذكري مَن الذي كان (يُفصّل) من ورق شجرة التين الأثواب التي كان يستر بها آدم بعض أجزاء بدنه!.. إني أراهن على أن حواء هي التي كانت تقوم على الأقل بمهمة التفصيل والتطريز...

– آه معشر الرجال..ما أشد رغبتكم في أن تجعلوا منّا طاهيات لكم وخادمات!.

– في هذا تشريف لقدركن..

– ماذا تقول؟...ماذا تقول؟..

– أقول: إن مجد المرأة الخالدة هو في أن القدر قد كتب على الرجل أن ينحني ليُطعَم من راحتها!... أنت التي تمدين الطفل، والشاب، والرجل بالغذاء؛ أي مادة الحياة... أنت التي جعلت منك الأساطير والديانات القديمة صورة لآلهات الخصب، ورمزا لفكرة (الحياة)!...

– لن تخدعنا بهذا الكلام المنمّق... نحن نرفض هذه المهمة الصغيرة. مهمة إطعامكم؛ لأننا نحس في أنفسنا القوة والقدرة والكفاية للقيام في معترك الحياة بمهام أخطر من ذلك وأعظم!...

– مهام أخطر وأعظم؟... مثل ماذا؟...

– نحن نتعلم في الجامعة مثلما تتعلمون، ونتخرج فيها بشهادات في الحقوق، والطب، والآداب، والعلوم؛ مثلكم تماماً، وأحياناً كثيرة نسبقكم ونبزكم في النبوغ، فلماذا لا يكون لنا مثل وظائفكم الهامة في المجتمع؟...

– ما هو أقصى ما تطمعن فيه من تلك الوظائف الهامة؟...

– لماذا لا يكون لنا مثلا حق الإنتخاب لعضوية البرلمان؟...لماذا لا تكون منّا سياسيات ومستشارات و وزيرات؟... لِمَ لا؟.

– وا أسفاه!... أهذا أبعد وأرفع واعلى ما تنظرن إليه؟.

– ولِمَ لا؟...ولم لا..

– أنا شخصياً لا مانع عندي مطلقاً من أن تهبطن إلى هذا المصير!. ولكن بقية الرجال منذ فجر التاريخ قد خصّوكنَّ بمنصب يحسبون انه أسمى من كل منصب..

– أهناك منصب أسمى من المستشارة والوزيرة؟..

– نعم...الإلهة والملكة...ما احمق الرجال!...طالعي جيداً أيتها الآنسه كتب التاريخ؛ بل تأمّلي تاريخ أي رجل: إن الحَطّاب في الغابة يكد كالعبد الرقيق طول نهاره ليعود عند الأصيل إلى ملكة وإلهة في داره، يضع عند اقدامها أجر جهاده.. و إن (نابليون) بعد كل معركة كان كان يرسل إلى أعتاب (جوزفين) أخبار انتصاراته كانها القرابين...وان كل عظيم؛ إنما يعمل ويجاهد، ويناضل وينهزم ويفوز و وراء خاطره شبح إمرأة موجودة أو غير موجودة: أم، أو زوجة، أوصديقة، يهدي لها آخر الأمر ثمرات نضاله...ما كفاح الرجل إلا قربان للمراة...إن حواء يوم أخرجت آدم من الجنة، إنما اخرجته لتسود عليه.. لقد قلتِ لي أنت: أن المساواة بينهما في الجنة كانت تامة فلأصدقك.. ولكن المرأة لا تريد المساواة.. انها تريد السيادة... و هي في الجنة مستحيلة... فكان عليها إذن ان تخرج برجلها إلى الأرض والحياة والكفاح، لتجلس هي على العرش وتجعله عندها عبداً رِقّا يكدح من أجل لقة من يديها... حواء هي

دائما حواء... لستُنَّ أنتن الطاهيات الخادمات؛ بل نحن معشر الرجال الخدم والعبيد، نُشقي حياتنا من أجل لقمة من أيديكن... ومع ذلك لا نسمع مكنَّ غير المن والترفّع.

– ها... ها... ها!..

– حقاً.... أنت أنت لا تتغير...ترفعُنا وتُخفِضنا كما تشاء، وتجد مع ذلك الأسباب والحجج التي يصعب دفعها!...

– لو عرفتِ الحقيقة لأدركتِ أني أريد أن أحتفظ لكن دائماً بمنصبكنَّ السامي الخطير، منصب الإلهة والملكة... لا حباً لسواد عيونكنَّ؛ بل لأني أعلم أن الرجال لا يستطيعون ان يعيشوا، وأن ينتجوا بغير أن تحكمهم الأيدي الناعمة!.... إني لا انظرالى مصيركن؛ *انما أخشى على مصير الرجال إذا اخشوشنت أيديكُنَّ، ففقدت سحرها الذي يدفعهم إلى الكفاح والنضال والعظمة*..

إني أريد ان أُحافظ على (الإلهة والملكة) فيكن؛ كم كان العُبّاد الوثنيون يحافظون على أصنامهم، لذلك أخشى عليكن من تأثير الجامعة...جامعة الرجال... التي قد تصب عقولكن في قالب عقل الرجال، وتسلب (معاملها) الكيميائية من أيديكنَّ النعومة اللازمة لأيدي الإلهات والملكات...

أنتِ الآن يا حواء في (الجامعة) تعودين إلى المساواة بالرجل كما كانت حواء الأولى في (الجنة)...فأين اليوم إبليس الذي يُغريكِ بالخروج منها، كي تستعيدي في يديك السيادة؟.

– لا تؤاخذني!... يا للهول!... إني ألمح في عينيك بريق نظرات إبليس؟... وإنطلقت الفتاة خارجة وولّت هاربة..

حماري والقاضية

وذكّرني حماري ذات ليلة بعهد اشتغالي في القضاء، ولعله أراد فيما يظهر – أن أُسليه وأرفّه عنه، فطلب إليَّ أن أصوّر جلسة قضائية في محكمة ترأسها إمرأه، لما يتوهمه من رأيي في المرأة.. فلم يستطع ذهني أن أتخيل ذلك المنظر.. وتركته آخر الليل، وذهبت إلى فراشي ونمت نوماً عميقاً... فإذا بي أرى حلماً مزعجاً لو نجحت في وصفه كما وقع، لأغناني عن تخيّل ما كان قد طلب إلي:

رأيت في الحلم أني رجل متزوج!! يا للكارثة.. ومتزوج بمن؟. سيدة تشتغل بوظيفة في القضاء.. إنها قاضية في محكمة مصر الابتدائية الأهلية.. وخُيّل إلي – في الرؤيا – انه قد مضت سنوات وأنا رازح في قيود هذه الزوجية الطريفة،

راضٍ بما كُتِب علي، قانع بما قُسِم لي...لا أجد غرابة ولا غضاضة في ذلك اللون من الحياة... وتلك ولا شك من خدع الأحلام، فهي تجتاز بنا الأعوام في شبه طرفة عين، وتضغط الوقائع الكبار والأحداث الجِسام، وتضعها في شبه بِرشامة يجرعها النائم؛ فيحس نتائج ما حدث كأنه أمر طبيعي عُرِض له في الحاضر القريب او الماضي السحيق.. على ان الأغرب من ذلك أن أجد في الرؤيا أني أب لطفلة في العام الثالث من عمرها... وأن أحسّ نحوها بكل عواطف الأبوة... عجباً

كيف استطاع الحلم ان يضع في قلبي مشاعر لا أعرفها ولم أحسها قط؟!.

كانت الطفلة في ذلك اليوم مع مربيتها. وكنت انا بجوارها أُلاعبها، وخُيّل إلي أني قد جعلتها تمتطي كتفي، وصرتُ أركض بها مثل الحصان، وهي تضحك تلك

الضحكات الصغيرة البريئة، ثم دقت الساعة الثانية... فأحست الطفلة الجوع، وبدأت تتململ ثم قالت: ماما... فتنبهتُ إلى أن السيدة حَرَمي لم تعد إلى المنزل بعد...
فعلينا إذن أن نتناول الطعام أنا وإبنتى وحدنا...فانا أيضاً أشعربجوع، ولكن ماذا تصنع زوحتي في المحكمة حتى الآن؟... ألقيت على نفسي هذا السؤال مرة أو مرتين...
ودفعني الفضول وحب الاستطلاع إلى ان أتحرّى الجواب... فتركت الطفلة تتغذى مع المربية، وأسرعت انا في سيارة إلى محكمة مصر الأهلية... سألت عن الست.. فقيل لي إنها في الجلسه، فهي منتدبة قاضية للإحالة، وهي تنظر في إحدى الجنايات الهامة فدخلت قاعة الجلسة، وجلست في مقاعد الحضور المحتشدين، واندسستُ بين جموع المشاهدين، فشاهدت الآتي:
زوجتي المصونة، والجوهرة المكنونة، متصدرة القاعة على المنصة، متوشّحة الوسام الأحمر فوق رداء اسود حقيقة، لعله يحل رسمياً بالنسبة لهن محل الردنجوت أو (الاسطنبولينه)، ولكن يظهر أنها حلت بعض أزراره عمداً، فكشف من تحته عن ثوبها (الكريب دي شين) الوردي الذي تقاضتني ثمن تفصيله منذ أيام...
وإذا هو يتَّسق إتساقاً جميلا مع لون الوسام وهلاله ونجومه النحاسية اللامعة...ولم يكن من اللائق طبعاً أن يبدو على شعر حضرة القاضية أو على وجهها وشفتيها آثار (التواليت) بشكل يلفت النظر،
ولكنها مع ذلك لم تنس قط أن تمر مر الكرام على ذلك الوجه بقليل من (البودرة)، ولا أن تخط بخفة على ذلك الفم خطا أحمر يستطيع قراءته ذوو الأفهام؛ فالمرأة هي المرأة دائماً؛ سواء أَلبِسَت النقاب والخلخال، أوالوسام وخوذة القتال، وكانت الإجراءات الأولى للقضية قد انتهت بوصولي، ولم يبق إلا دفاع المحامي...
فقد أبصرتُ القاضية الفاضلة مستغرقة كل الاستغراق في الإصغاء إلى مرافعته الحارة، وكان ذلك المحامي شاباً وسيماً من شبّان اليوم.. الذين يُحسنون تلميع شعورهم وتنعيم

وجوههم وتنغيم اصواتهم... فوقف متجهاً بكل جوارحه نحو الست زوجتي، وكأنه يضن حتى بمجرد الالتفات إلى الآنسة (وكيلة النيابة) بوسامها الأخضر الأحمر، وحركاتها العصبية الممزوجة بالدلع والدلال... وقد كانت حضرتها على لطف اشارتها ورقّة إيماءتها تعوزها الملاحة التي تفتن مثل ذلك الشاب..

أما حَرَمنا؛ فمن سوء حظي كانت فيما يظهر أجمل من زميلتها قليلا، فجذبت إليها وحدها عيون المحامي وعنايته وإهتمامه وربما قلبه أيضاً وعقله وباله وبلياله وجعل هذا المفتون المأفون يتمايل تارة، ويرتب بأنامله نظام شعره تارةً أخرى ويقول: – يا حظرة الرئيسة هذه قضية الحب...قضة القلب...هذه القضية المطروحة بين يديك هي قضية متهمة تعسة مسكينة، لم ترتكب شيئاً غيرالاصغاء إلى صوت قلبها.. ومتى كان في الاصغاء إلى نداء القلب جريمة؟... يتهمون موكلتي بأنها قتلت زوجها بالسم؛ لتفر مع حبيبها... هذا صحيح... وقد اعترفت في محضر التحقيق.. نعم. لقد لجأت إلى القتل، ولكن فلنسأل لماذا فعلت ذلك؟..

هذه المتهمة خدعها أهلها فزوّجوها من رجل أقنعوها بالزواج منه، لأنهم وجدوه القرين الكفء... وكم من الفتيات يغربهن أهلهن بأن يتزوجن رجلاً لا يحببنه، لماله أو جاهه أو شهرته فيرضين مدفوعات بهذا الإغراء.. ثم تمر الأيام وينطفيء البهرج الخادع.. وإذا الشقاء يُخيّم كالليل البهيم على قلوب هاته الزوجات التعسات... هذا ما حدث لهذه المتهمة... التي إقترنت بزوجها المجني عليه، وعاشت معه أعواماً أنجبت منه خلالها طفلة جميلة... ولكنها مع ذلك لم تحس لهيب ذلك الحب الجارف العارم، والغرام المغرق الضارم الذي رأته في القصص وشاهدته في السينما.. يا للهول.. أسيُقدَّر لها أن تعيش حياتها دون أن تعرف هذا الهناء أو تبصر لونه؟... هذا حقها...هذا حق كل فتاة... فلكل فتاة الحق في الحب... في هذا اللون من الحب... يجب أن تصادفه ولو مرة في حياتها... وكان كل ذنب موكّلَتي... وكل جريمتها أنها صادفت أخيراً هذا

الحظ ونالت هذا الحق... كان ذلك في يوم هيأةُ القدر بدقة وحكمة وتدبير... فقد وجدت ضالتها في صورة شاب جميل، تبعها يوماً في الطريق من محل شيكوريل إلى منزلها، وتمكن من معرفة رقم تليفونها... فوالاها بعنايته، وبثها هواه ولوعته... وسألها أن تصغي إلى ترانيم الغرام ونداء الهيام، وتترك منزل الزوجية وتتبعه إلى الفردوس المفقود والنعيم المنشود... ماذا تصنع هذه الزوجة في هذا الموقف يا سيدتي الرئيسة. من حسن الحظ أن القاضية لهذه المتهمة امرأة مثلها تستطع أن تفهمها... فما من أحد يفهم قلب المرأة العاشقة غير المرأة. و لم تنطق حضرة الرئيسة، ولكنها تنهدت، وأشارت براسها إشارة معناها أنها فهمت!!. واستمر المحامي الرشيق يقول:

– كانت أمام موكلتي عقدة يجب حلها، وعقبة في سبيل هنائها يجب تذليلها.. هي زوجها..إنها كانت تعلم أن هذا الزوج يعبدها عبادة... وأنه إذا علم بفرارها إنتحر لا محالة... وقتل نفسه أشنع قتلة... فقد جاهر لها إنها هي كل شيء في حياته، فإذا خرجت من هذه الحياة، فأيسر من ذلك عنده خروج روحه من بدنه، فما العمل؟.أتتركه يضع السكّين في فؤاده؟. أتدعه يتألم ذلك الألم المادي من جراحه، والمعنوي من خيبة أمله فيها؟...كلا... انها زوجة طيبة النفس رقيقة الحاشية، حية الضمير.... كان يجب عليها أن تؤدي واجبها المقدس نحو زوجها الأمين... وقد فعلت.. نعم لقداختارت له – ووُفِّقَت في الإختيار. نوع الموتة الهينة اللينة التي لا تُشعره بعذاب ولا ألم.

وتهدّج صوت المحامي في هذه العبارة، وتوقف عن الكلام خشية أن تخنقه العبرات، ونظر إلى ربة الجلسة المطرقة الساهمة.. فإذا بها – لدهشتي – قد بلغ بها التأثر.. والتفت إلى وكيلة النيابة قائلة في صوت خافت:

– معاكي منديل يا نبويّة... نسيت منديلي في أودة المداوله. وانطلق محامي المتهمة ماضياً في مرافعته قبل أن يبرد الموقف فصاح:

– نعم يا حضرة الرئيسة.. لقد قامت موكلتي بواجبها كزوجة أمينة وفية لزوجها... هذا السم الذي لا يحدث آلاماً قبل الوفاة، ولا يحس من يتعاطاه شيئاً سوى إغماء بسيط يعقبه نوم هادىء طويل عميق؛ كأنه نوم الاطفال...

فقاطعته القاضية الكريمة سائلةً:

– من فضلك السم ده اسمه إيه!... فلم أطق صبراً، ولم أستطع إحتمالاً ولا انتظاراً لنهاية القضية ولا لشيء آخر بعد ذلك... فنهضت مرتاعا من مقعدي، وخرجت من قاعة الجلسة وأنا أقول:

– قسما بالله العظيم ما أتغدّى في بيتنا بعد اليوم... وأعماني الذعر، فعثرت قدمي بعتبة باب الجلسة فهويت على الأرض، وعندئذ فتحت عيني؛ فإذا أنا متدحرج من السرير على أرض الحجرة... فقمت أفرك أجفاني وأقول:

(الحمد لله أنى سليم معافى ولم أتزوج قط).. ولن أتزوج أبداً.. حتى إذا اختارني ربي إلى جواره وأدخل الجنة، فسوف أطلب إليه أن يكون بيني وبين الحور سور)!.

حماري وحزب النساء

قال لي حماري وهو يلمح بعينه في احدى الصحف خبر تشكيل حزب نسائي..
– ما رأيك في الحزب النسائي؟... طبعاً لا بد أن يكون لك فيه رأي...أليس كذلك؟... فأجبته قائلا:
– أمن الطبيعي في نظرك أن يكون لي فيه رأي؟..... لا بأس ليكن الأمر كذلك، وأظنه طبيعياً ايضاً أن يكون هذا الرأي في جانب حزب النساء... ولِمَ لا؟... إني رجل مظلوم.. ولسوف يؤلَّف عني كتاب بعد موتي: (توفيق المفتَرى عليه)... الواقع أني دائماً أتمنى للمرأة تقدماً... ولا اختلف معها إلا في معنى كلمة (التقدم) فهي تفهمها على انها الجري في اثرالرجل واللحاق به.. وأنا على العكس: ارى الرجل هو الذي يجري وراء المرأة... فالمسألة فيما يظهرلا تعدومجرد خلاف في الرؤية والنظر... وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشري بواحد ذي عينين سليمتين، ليبصر لنا ايهما هوالذي يسير خلف الآخر؟!...
ولأسلم عل كل حال بنظرية المرأة إثباتاً لحسن نيتي... ولنقُل ان الرجل هو المتقدم، وإنَّها هي المتخلفة... وتفانياً مني في إرضائها اقول: ان هذا التخلف يبدأ من نصف مليون سنة، أي منذ عصر الكهوف،
يوم كان الإنسان الأول يعيش حياة الصيد في الغابات تاركا أنثاه في كهفها تعتني بصغارها وتهيأ مما صاد لها ولأطفاله طعامهم وطعامها...لقد كان هذا التوزيع في العمل بأمر من الطبيعة التي زودت الرجل بعضلات قوية للكفاح خارج الكهف، وحَبَت الأنثى بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للأمومة داخل العش... ومرت آلاف الأعوام، وهذا التقسيم في أعمال الجنسين قائم – وإن كان الصيد قد تغيّر– حتى اتخذ

اليوم ألواناً جديدة مثل المال والجاه، والمنصب، والنفوذ...إلخ. وتبدلت كذلك الأسلحة، فذهبت القوس والنشّاب، وحل محلها سلاح آخر معنوي إجتماعي ذهني تصاد به كل تلك الأغراض، مما اصطلحنا على تسميته (العلم والخبرة والقدرة، والسياسة).. إلخ... كذلك تغير كهف المرأة فأصبح، (شقة) نظيفة أو (فيلا) مريحة، تخطر فيها بأثوابها الأنيقة وزينتها البديعة، و تعني بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجسمانية والخلقية.

لم تستطع إذن خمسمائة ألف من الأعوام أن تحدث من التغيير في أوضاع الجنسين أكثر من ذلك... ولقد لبث لكل منهما عالمه المنفصل، ومجال نشاطه المنفصل طوال هذا القدر الهائل من الاحقاب... الرجل له الخارج، والمرأة لها الداخل... وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تكيف طبيعة الإنسان، فإذا راق للمراة اليوم أن تغير طبيعتها، وحلا في عينها أن تعمل ما يعمله الرجل، فتشتغل بأعمال الخارج، وتخوض بنفسها غمار الكفاح في ميادين السياسة والجاه والسلطان، فذلك موكول إليها.. وكلنا نرحب به؛ بل إني أناشدها أن تسرع منذ الآن.. ولتبدأ من البداية في الحال، حتى لا تضيع وقتاً على من سوف يأتي في المسقبل من أجيال.

والاقتراح العملي لتحقيق ذلك، هو أن نبادر من فورنا فنرسل حضرات سيدات الحزب النسائي إلى مجتمع فطري، يشابه مجتمع الانسان الأول.. وأظننا نجد مثل هذا المجتمع الآن في غابات أواسط أفريقيا.. هناك تترك البعثة الكريمة لتضع أساس الحياة المنشودة.. عليها أن تعيد توزيع العمل من جديد على الوضع العكسي، فتتولى هي القيام بأعمال الصيد في الغابات.. وتدع للرجل العمل داخل الكهوف.. ولننتظر نصف مليون سنة أخرى، وهذا ليس بكثير، حتى تتوالد أجيال جديدة من النساء المكافحات يرفعن رؤوس أجدادهن، ويسطّرن بمداد الفخار مباديء الحزب النسائي الموقَّر!..

***

على أني أخشى أن يرى الحزب النسائي أن اقتراحي هذا غيرعملي.. فمن الواجب إذن أن نفكر في حل آخر: قد تقول لي بعض النساء المحترمات:

– لماذا لا نجرب ونسمح لهن من الآن بمقاعد في البرلمان؟... أنا شخصياً لا أرى مانعاً من إعطاء المرأة حق التمثيل السياسي في مجلس النواب (بالطبع جميع النساء متنازلات مقدماً عن حقهن في مجلس (الشيوخ)، وزيادة في تسهيل الأمر على أخواننا المحافظين المتعنتين من الرجال أقترح الأخذ بمبدأ أن (*للذكر مثل حظ الأنثيين*)، فيكون لكل امرأة صوت واحد: وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقاً إرضاءً لغرور الرجال... وأنا على أتم استعداد لمعاونة المرأة والمطالبة معها بهذا الحق على هذا الأساس الّا إذا إعترض حزبهن الموقر بأن هذا الرأي أيضاً غير عملي.. بحجة أن إشتراط صوت لكل أمرأتين *يتطلب وجود أمرأتين في البرلمان يمكن أن تتفقا على رأي واحد*، وهذا بعيد الاحتمال. مهما يكن من أمر، فأني راغب من كل قلبي في منح المرأة حقوقاً سياسية مساوية لحقوق الرجل.. وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذي تتبوأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة وهنا فليُسمح لي بسؤال:

– هل ستكون لهن مقاعد خاصة بإعتبارهن حزباً منفصلا قائماً بذاته، أوأنهن سيدخلن على مباديء أحزاب الرجال المعروفة، ويمتزجن بها، كل واحدة ضمن الحزب الذي يرشحها؟... إذا كان الأمر الأول؛ فلا شك أن حزبهن المستقل سوف يكون في الشؤون النسوية صاحب الكلمة التي لا تُعصى ولا تُرَد فإذا اقترح الحزب النسائي مثلاً إعفاء (البودرة) و (الروج) و (الجوارب) من كل ضريبة جمركية أو تجارية، فإن هذا الإعفاء نافذ بدون كلام، والرجل الذي يجرؤ على المعارضة يكون مستعداً لنكد الدنيا يهبط على ام رأسه لا في البرلمان وحده؛ بل في بيته من زوجته أو أخته أو إبنته.

أما إذا كان الأمر الثاني، فإني لا أرى فائدة كبرى تعود على المراة منه... وأخشى مخلصاً أن تطويهن مطامع الأحزاب الأخرى فلا ينتفعن لانفسهن بشيء.

***

لي بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب ان توضع موضع الاعتبار: لقد عاب أحد الشيوخ االمحترمين على النساء الموظفات حرصهن على زينتهن.. وأنا لست من رأيه. إذ ما دمنا قد سلمنا للمرأة بحقوقها في الوظائف العامة، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال حقها الطبيعي في (الأحمر والأبيض)... وما أحسب أحداً من زملائها في البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتخذ مكانها فيه... فأن الوجه النظيف والتزيّن اللطيف من أبلغ حجج المرأة... وليس من الإنصاف أن نحرمها سلاحا من اسلحة بلاغتها المأثورة في ساحة يتذرع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والإقناع...

***

وأخيراً، يا حماري العزيز فإني أُلخّص لك رأيي في كلمة واحدة هي: موافقتي التامة على وجود المراة في البرلمان وفي كل مكان إلى جانب الرجل، لأن مجرد وجودها يحدث نشاطاً في الهِمم وتالقاً في الأفكار...

لقد قلت ذات مرة: إن المرأة مثل القمر... (اقصد بمعناه الفلكي لا الشعري) فهي لا تشع ضوءاً من داخل نفسها، بل تعكس الضوء الآتي اليها من شمس عقل الرجل... هي كالقمر (كائن سلبي)، وسطح معتم في ذاته، *لا تسطع الا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل وإحساسه*... فدنوها منه في مجال العمل المنتج، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة إلى جانب المصباح.. انها تضاعف نوره، وتزيد إشعاعه. اما أن تنتظر منها أكثر من ذلك فهو إنتظار للمستحيل... لن يكون للنساء في مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما للمرايا بجوار المصابح في القاعات والصالات... ولقد بلغنا ولاشك في الحضارة حداً يقتضي أن نزيّن جدراننا بالبلّور!!..

حماري و عداوة المرأة

قال لي حماري ذات يوم:

– لماذا انفردت بين الأدباء بإحتقار المرأة؟...

– ومن قال لك إني إنفردْت؟.... هنالك العقّاد...

– وهل يكره العقّاد المرأة حقاً أو يحتقرها؟...

– هذا سؤال يحسن أن تُلقيه عليه.. أما أنا فأتخيل أنه سيجيبك صائحاً هذه الإجابة الوافية الشافية:

– أنا أكره المرأة!... من يقول ذلك عني؟. حبي للمرأة أمر مقطوع به، ولم يكن يوماً موضع شك أو جدال...فأنا رجل طاهر السريرة، واضح النهج و حياتي صريحة... لم يسبغ عليها قط رداء الغموض.. مودتي أمنحها أمام الملأ، وعداوتي أعلنها على رؤوس الأشهاد... فمنذا يسطيع أن يزعم أني وقفت تجاه المرأة موقفاً ينم عن زراية أو بغضاء؟... أين بدا ذلك مني؟... هأنذا أُلقي بقفاز التحدي...

ومع ذلك أُصغي أحياناً إلى همسات تتصاعد من قرارة نفسي أرجو أن لايكون لها صدى يبلغ آذان النساء، همسات تُنبئني بأن المرأة كانت في نظري، وتكون شيئاً لا يستحق غير الامتهان:

زرقة عينيكِ لا صفاء * فيها، ولكنها فضاء(*)**

حمرة خديك لا حياء * فيها، ولكنه إشتهاء**

وجهك سبحان من جلاهُ * ولوّث النفس بالطلاء**

قلتُ ذلك حقاً في المرأة، ولستُ أدري كيف أنشدته وسطرته ونشرته دون ان أُثير خصومة ذلك الجنس الخطر!... السبب في ذلك بسيط: إنّي أُعامل المرأة كما ينبغي أن تُعامَل: لا بالعقل الرشيد، ولا بالمنطق السديد، أنا الذي حذق التحليل المنطقي وبرع في التدليل العقلي، ووضع كل شيء تحت مصباح الطريقة الذهنية، واخضع كل بحث إلى الأسلوب الفكري، رأيت ان أشذ عن هذه القاعدة في علاقتي بالمرأة.. لم أخاطبها قط يوماً بغير لغتها.. لذلك فهمتني ولم تُثِر في وجهي..

إني لم اصنع للمرأة تمثالاً مموهاً بالقداسه الزائفة، ولم أرِدها كما يريدها خيال أولئك الشعراء الذين يركبون إليها المراكب الثملة، ويمخرون نحوها البحار البعيدة، ويبحثون عليها في الشواطيء المجهولة، وهي منهم على بعد خطوة.. جالسة تنتظر، وتكاد أقدامهم تتعثر فيها وهم لا يُبصرون... كلا...إني أُبصرها... وأراها دائماً كما هي... وكما خلقها بارئها: فاكهة شهيه غضة ينخر فيها الدود... فلننفض عنها دودها، ونحن نُخفي إشمئزازنا، ولنطبق عليها بأنيابنا، ونلتهمها بأفواهنا، ثم نطرحها جلده رثة، وقشرة بالية.. هكذا أراد لها القدر.. فلماذا نريدها نحن على غير ذلك؟

(*) الإسشهادات الشعرية فيها من ديوان أعاصير مغرب للأستاذ عباس محمود العقّاد

أنت الملوم إذا أردتَ لها * ما لم يُرِدهُ قضاء باريها**

تلك نظرتي إلى المرأة... لم أوصد دونها بابي يوماً... ولم أُشِح عنها بوجهي... لقد فتحت باب حياتي على مصراعيه لكل إمرأة تدخل بسلام آمنة!... كل النساء على السواء: ممن أطلق عليهن أسم الفاضلات، وممن حُسِبنَ في غيرهن.. ومن أنصاف أولئك وهؤلاء!... لكن نوع المعاملة قلما يتغير... قد أغير وأبدل أحياناً في أسلوب وأردية الكلام ومقتضيات المقام... فتلك التي يقال عنها مثقفة أحيطها بجو فكري ينشط خيالها، ولا يثقل عل طبيعتها... ذلك أن طبيعة الأنثى في المرأة لها دائماً المكان الأولى؛ فلنلزم معها الحيطة، ولنتجنب الإملال والاثقال... *فما من إمرأة تُطيق حمل رفيع الأفكارأكثر من قدر بسيط معلوم*، يحسن أن تتخلله فترة مداعبات عاطفية، وتفاهات أو محادثات سطحية. أذكر ذات يوم أن زارتني إمرأتان من طراز أولئك المثقفات؛ فلبثنا نتحدث ساعة في بعض الشؤون الثقافية، وشغلني شاغل فانصرفت عنهما طرفة عين، فما عدت أليهما حتى وجدتهما تتحادثان في أنواع أصابع الروج اواصناف طلاء الوجه والشفاه...آه.. لو أنهن (على الأقل)كن يطلين بالثقافة الحقيقية أزواجهن بالمقدار الذي يطلين به شفاههن؛.

أني لا أقول لهن هذاالكلام... ولكنى أعمل أحياناً ما هوأقسى من القول: *إني لا أحجم عن إشعار المرأة وهي أمامي بأنها مخلوق تافه حقاً*... ومع ذلك...يا للعجب العجاب!... إن المرأة تثور للكلام ولا تثور للفعال.. إنها تغضب لكلمة تسمعها، ولا تغضب لصفعة على وجنتها!. وماذا أريد انا أكثر من إذلالها بغير اثارتها؟!..إني رجل يعرف الحب..

وقد أحببت على الطريقة التي يروق للمرأة...*أي ذلك اللون من الحب الممزوج بالتقدير والتحقير*؛ *فالإهانة أو الزراية هي الملح الذي يجب ان يوضع في الحب ليكون له المذاق. الذي تسيغه المراة* ;

بعض الزراية نافعٌ * في حبهنَّ فلا تُغالِ**

هكذا ظفرت بالمرأة، لأني عرفت سرّها.. مفتاح أمرها دائماً في يدي؛ الوّح لها به عند كل لقاء... فإذا هي تبسم صاغرة وتفتح لي مغاليقها من تلقاء نفسها. إن المراة ليست مغلقة إلا لذلك الذي أضاع مفتاحها.... قد يسألني سائل:

ما هو هذا السر؟... فأجيب من فوري: هوالخداع...لا ترع من هذه الكلمة!..

هي عندنا نحن الرجال نقيصة، وهي عندهن غريزة.. منذ فجر التواريخ والمرأة تتزيّن: أي تخدع...لقد عرف الطلاء على وجه المراة قبل أن يُعرف على جدران الهياكل!..

وطلاء الجسم ملازم لطلاء النفس، بل ان النفس هي المنبع.. فهي بنزوعها إلى الكذب واالتمويه تتخذ الجسمم لها مطية...ما من إمراة صدقت وتشجعت وبرزت سافرة للرجل كي يعرف وجهها الحقيقي!..

منذ آلاف الأعوام والمرأة تتنفس من إحدى رئتيها بالهواء، ومن الرئة الأخرى بالرياء... بل ان الرياء والخداع هما الأكسجين والهيدروجين في هواء كل إمراة.... ولقد اتخذ الخداع على مر الأجيال الواناً تحاكي ألوان أثوابها، فهو تارة بريء الغرض كل مهمته ان يبهر البصر... وهو تارة رداء ضرورى يستر عورة، وهو في كل الأجيال سليقة تنطلق بلا غاية ولا هدف.. لذلك ما فكرت يوماً في لوم إمرأة لأنها خدعت إنما كنت ألقاها قائلا:

خلِّ المَلام فليسَ يُثنيها * حُبُّ الخداعِ طبيعةٌ فيها**

كانت هي تلقاني وعلى فمي ابتسامة الفاهم شأنها، المتوقع لكل خيانة منها.. فما تبدو منها بادرة حتى أعالجها بقولي:

خُنها ولا تُخلِص لها أبداً *** تخلص إلى أغلى غواليها

نعم...المراة لا تذكر كلمة (الإخلاص) إلا إذا ذكرت انت (الخيانة). أما إذا رفعت عقيرتك لتتغنّى بالإخلاص، فإن دوي اغانيك وترانيم أناشيدك، وإن بلغت السماء، فإنها لا تبلغ اذنيها.. وإن هي سمعت الكلمة، فثق انها نسيت المعنى.. تلك هي المرأة التي تلقَّنَتْ درسها الأول من الحية، و درسها الثاني من الشيطان.

قلت لك اني اعرف الحب كما يحلو للمراة، لا كما يحلو لأصحاب الخيال... فاسمع مني النصح أيها الرجل: إذا احببت امرأة فاصنع ما اقول لك:

لن اقول لك اليوم بالطبع ما كان يُقال قديماً:

((*إذا دخلت على المرأة فلا تنس أن تُخفي في تلابيبك سوطاً*))

كلا...فإن إمراة هذا العصرلا يرعبها السوط ولكني اقول لك:إذا لقيت حبيبتك فإنشدها:

حبك لا نعمة أراها *** فيهِ، ولكنه جزاءُ

يا جنة حسنها عقابٌ *** يا خمرة عذبها عذابُ

متى متى ينطوي الكتاب؟ *** متى فراق بلا لقاءُ؟!

حماري والمحكمة

قال لي حماري ونحن نتذاكر الماضي يوماً:

– إنَّك قد اعتزلت خدمة الحكومة، ولاريب أنك تذكر فيها مواقف لك، لا يمكن أن تحدث لغيرك!... فقلت وأنا شاخص ببصري إلى الفضاء:

– حقاً.. اليوم وقد أصبحت بحمد الله من أرباب المعاشات، فلا جناح عليَّ من ذكر طرف مما كان يقع لي أحياناً أثناء خدمتي في وظائف الحكومة. ولأتخيّر لك عهد انشغالي في سلك القضاء؛ فما زالت فيه حوادث يذكرني فيها من آنٍ لآن بعض الزملاء السابقين.. ومن ذلك تلك الحادثة التى أرويها لك، فقد وضعَتني موضع الحرج لحظة من اللحظات:

كنت في كرسي النيابة العمومية ذات صباح متشحاً بوسامي الأحمر الأخضر، وكان أمامى (الرول)؛ ذلك الدفتر الطويل الذي تدوَّن فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين، والشهود، وملخص وصف التهمة، ومواد القانون.. إلخ..

وبين أصابعي ذلك القلم الذي يجب أن أدون به الحكم الذي ينطق به القاضي في كل قضية، ولكن الحق يقال:ما من مرة دونت فيها الأحكام كاملة في ذلك (الرول) فقد كان سكرتير المحكمة (الله يستره) هوالذي يسد هذه الخانة بقلمه – تلطفاً منه وكرماً – لثقته بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبعت كل القضايا بيقظة وإنتباه... على أن من المبالغة أن أزعم أن كنت أشرد عن كل ما يجري حولي طوال الوقت... هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أوجه إليها التفاتي. لعلي كنت

أعرف بالغريزة ما ينفعني كروائي مما لا نفع لي فيه... اني ما كنت أطيق ثرثرة المحامين... فالقضية التي فيها مرافعة طويلة معناها عندي (غياب ذهن طويل)... وربما حوار قصير بين شخصين تافهين – في نظر المحكمة – يثير في نفسي كل تأمل وتفكير، لقد سمعت في ذلك اليوم الذي أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضي وخفير نظامي تعدت عليه امرأة بالفاظ جارحة:

القاضي: ماذا حصل يا خفير؟..

الخفير: أنا واقف في دركي جهة نقطة الملمومات (يقصد المومسات) ضربت بعيني لقيت الحرمة المتهمة خارجة من بيتها حاطة...

القاضي: حاطة إيه؟...

الخفير: حاطة من غير مؤاخذة أحمر وأبيض، ومتخططة، وفي رجليها الخلاخيل ولابسة شبشب رجالي، وواقفة بين الجدعان في وسط الشارع، في حالة هزار وضحك وصهاليل بشكل مخالف للحشمة والكمال..

القاضي: وكيف تعدت عليك المتهمة أثناء تأدية وظيفتك؟

الخفير: قلت لها عيب يا ملموسة... ادخلي بيتك... فما كان منها إلا أنها زغّرت لي من فوق لتحت، وتقصعت وقالت:

(*إخرس يا غفير يا مصدّي.. قطع لسانك.. دا انا لما انفض شبشبي الصبح ينزل منه عشرين غفير زيّك*)!.... فظهر الاستنكار على وجه القاضي وظهر الإعجاب على وجهي. ان هذه المرأة في نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدي وهي في نظري قد جاءت بأخصب صور الخيال الفني... فما أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة في تحقير خفير.. لو استطاع ذهن هذه المراة ان يبدع صوراً أخرى في التجميل والثناء، كما فعلت في التقبيح والهجاء لكانت شاعرة. ونظرت اليها وهي في قفص

الاتهام فإذا هي هادئة ساكنة، ويدها على خدها، ترمقنا بنظرات فاترة، وعلى شفتيها إبتسامة؛ لعلها ساخرة... إنها معترفة، ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه؟... لقد روَّحت عن نفسها بما قالت، وكفى... ماذا يهم الثمن بعد ذلك؟. تُرى ماذا في حياة هذه الساقطة؟..لا أقصد حياتها الظاهرة التي يعرفها الخفير ورجال الضبط، وزوارها وزبائنها، إنما اقصد تلك الحياة الخفية في قرارة نفسها... هنالك ولاشك أشياء كثيرة رأتها وأحستها، ولا تكلف نفسها مشقة التعبير عنها.. ولو انها ارادت او استطاعت لجاءت بأعاجيب، ذلك أنها ستصف الأشياء بطريقتها هي ولغتها هي... ويا لها من طريقة ولغة..لو استطعت ان أجلس إليها وأتلقى عنها؟.. ليس اكذب من الروائي الذي يفكر لأشخاصه بعقله هو... ويتكلم عنهم بلغته هو... هذه المرأة مادة قيمة لي، ولكن... أنسيت أني أمثّل الاتهام؟.. نحن في الحياة قطبان لا يلتقيان... وإنْ إلتقينا فحول القفص لأني أبا العقاب، وهي الجريمة...أنا السيف وهي الذبيحة...لا يمكن أن. نلتقي للتفاهم أبداً...لا تفاهم الّا إذا طرحت عني وسامي الذي يُكبّلني وانطلقت حراً أغترف من أعماق تلك الشخصيات كا يغترف المثّال من الطين الذي يصنع به فناً...

ومضت بي الخواطر في هذا السبيل، وغمرتني فلم أدر حتى بالزمن الذي مر بي...ولم أفطن إلى ما جرى حولي، ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا.. ولم أتنبه إلّا على صوت باب حجرة المداولة يفتَح فجأة، وقد ظهر الحاجب في حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسياً وضعه إلى جواري، وهمس في اذني بقوة:

سعادة البك مفتش عموم النيابات!...

وقبل أن أفيق إلى نفسي دخل المفتش بسرعة، وجلس إلى جواري، وحيّاني بصوت خافت...ثم أراد أن يعرف رأيي في القضية المعروضة، فاصفرَّ وجهي.. أي قضية؟..

والتفتُّ أنظر إلى ما يدور حولي في الجلسة بعيون زائغة شاردة فابصرتُ أحد الحرّاس الفطاحل يرغي ويزبد ويضرب بقبضته في الهواء ويصيح:

– هذا كلام فارغ، النيابة أخطأت في تكييف وصف التهمة.. لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلي على حقيقتها لما قدم إليكم يا حضرة القاضي هذا اليوم مكبّلا بكل هذه النصوص..!

فمال مفتش النيابات يسألني عن المواد المطبقة على هذا المتهم فلم ادرِ ماذا أقول ولا ماذا أصنع... وأنا لا أعرف في أي قضية يتكلمون في الجلسة ويتناقشون... وشاء سوء حظي أن يكون المحامي سفيه اللسان فامعن في الصياح قائلاً:

– هل هذه نصوص تُطبّق في حالة موكّلي؟... هذا تخبط من النيابة.., هذه فوضى... هذا سمك لبن تمر هندي...

فاهتز مفتش النيابات في كرسيه وإنتفخت اوداجه... وهمس في أذني بشدة:

– النيابة أُهينت.... قم دافع عن كرامة النيابة!... فقلت مداراة للمسألة:

– كرامة النيابة في الحفظ والصون..

– كيف ذلك؟... ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضى؟. المحامي يقول: ان النيابة سمك لبن تمر هندي.. فقلت له: أنا لم اسمع غيركلمة تمر هندي فقط. فصاح صيحة يكاد يسمعها القاضي والحضور:

– لا... لا يا توفيق بك...هذه إهانة موجهة إلى النيابة... يجب على الجالس في كرسيها أن ينهض لدفعها... قم... قم... وسجل إحتجاجك... وإبسط وجهة نظرك في تطبيق نصوص القانون... فقلت في نفسي:

لو أني كنت أعرف فقط نوع القضية... ولكن الموقف ساء من كل ناحية؛ فكان الدفاع بعيداً كل البعد عن ذكر ما يُشَم منه رائحة التهمة، مكتفياً بالتهويش والتهويل والطعن في تصرفات النيابة والبوليس... وكلما أمعَنَ في ذلك هاج مفتش النيابات

وماج، وانهال على كمّى يكاد يمزقه وهو يطلب مني القيام والكلام... وانا متشبث بمقعدي، مصمم على القعود والسكوت.. وأصبح منظرنا – لمن يفهم موقفنا – يُبكي ويُضحَك.. وقد فطن القاضي إلى الأمر كله، وأدرك الورطة التي أنا فيها، وهو يعرف عاداتي جيداً، ويحترم شرود ذهني دائما... فإبتسم ابتسامة فهمتها.. فتشجعت، وقمت أقول بقوة وحماسة: النيابة تحتج على الألفاظ التي صدرت من حضرة المحامي.

فقال القاضي:

– المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها وتسمح للدفاع بكامل حريته، وهو لم يقصد قط في أي لحظة أن يمس كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد...

وصادق المحامي على قول المحكمة بعبارة مجاملة، وجلست في مقعدي أتنفس الصعداء وأقول لمفتش النيابات:

– ها أنذا قد رفعت لكم رأس النيابة؛...

ومرت الأعوام، وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية في البلاد... فكنا كلما تقابلنا وتذاكرنا الماضي ضحك لموقفي ذاك طويلا.. ولكنه ظل رغم ذلك من المعتقدين بأني كنت — مع كل عيوبي – من خيرة رجال النيابة.. عافاه الله.

حماري والجريمة

قال حماري يوماً:

– (لا شك أن الكاتب الخالق يجد نفسه أحياناً في حاجة إلى ترك عزلته الذهنية والهبوط إلى طبقات الناس المختلفة، يدرس أحوالهم، ويجمع ما ينفعه مادة لفنه... من أجل ذلك يتحتم عليه معاشرة أصناف متباينة من البشر... ويستوي عنده الجلوس إلى العظماء والأثرياء، أو اللصوص والأشقياء، ولا يفرق في الاختلاط بين الأجلّاء والسفهاء، ولا بين الفاضلات والساقطات، الجميع في نظره نماذج من أشخاص تلك الرواية الكبرى التى تجرى حوادثها كل يوم على مسرح المجتمع.. وهل يستطيع المؤلف الروائي أن يميز في تقديره وعنايته – وهو يصور أبطاله – بين شخصية (الرفيع) وشخصية (الوضيع)؟... كلاهما في عرفه وعمله يحتاجا إلى عين الدراسة وعين الالتفات...

لذلك يحسن بالروائي الخالق أن يصاحب ويخالط كل المخلوقات على السواء، وأن يراقب ويدرس كل المهن والحِرَف والطبائع والغزائز...فقلت له:

– رأيك هذا صحيح يا حماري العزيز... ولقد قرأت في أخبار الروائيين في هذا الشأن ما يثير الدهشة والعجب... مِن ذلك أن كاتباً مشهوراً إتخذ صديقاً له ذلك اللص الأمريكى المشهور (آل كابوني) وهي ولا ريب صداقة مفهومة المعنى والغرض،

فقد كانت نتيجتها المحتومة ظهور كتاب طريف عن هذه الشخصية المخيفة العجيبة يحوي أصدق الوصف لبيئة كان يجب أن تُدرَّس وتصوَّر وتبرز لمصلحة الفن ومنفعة القضاء... ولكن يا صديقي الحمار فلنفرض جدلاً أني اردت انا أيضاً اخراج كتاب لا على نسق كتابي (يوميات نائب في الأرياف) ولكن على نسق ذلك الكتاب الأمريكي أسميه مثلا (يوميات لص في القاهرة) أدرس فيه عصابة لصوص بكل ما يحيط بها من بيئة وظروف.. وأخترت لتلك الدراسة – لا طبقة اللصوص الأرستقراطيين الذين لا يَقْرَبهم القانون)؛ فأنت في كنف هؤلاء بمأمن... ولكن اخترت – أولئك الذين يطاردهم البوليس في كل مكان... اردت ان اصور هؤلاء الخطرين الخارجين على المجتمع وقوانينه، فإتصلت بهم وجلست اليهم،.وسمعت ما يدور بينهم من مؤامرات، وعلمت انهم مقبلون على ارتكاب جريمة سطو على بنگ من البنوگ في ليلة من الليالى... واطمأن إليَّ هؤلاء القوم، وأمنوا جانبي و وثقوا (بشرفي) فوضعوا أمامي الخطة... إلى هنا لا جناح على مثلي من نظر القضاء فليس كل ذلك بعد سوى أعمال تحضيرية غير معاقب عليها... ولكن ليلة السطو جاءت... فترددتُ: هل اذهب معهم او لا أذهب؟...

إذا أنا لم أذهب فقد خسرت دراستي؛ فالفائدة كل الفائدة من حيث الفن الروائي هي في حضور واقعه السطو نفسها... كما أن قيمة الشريط السينمائي لجريدة الحرب المصورة هي في إلتقاط وقائع الميدان بذاتها...لابد من الذهاب معهم إذن ولو تعرضت للخطر.. وقد ذهبت مدفوعاً بوسواس شيطان الفن...وهنا المصيبة... فقد هجم اللصوص هجمتهم على باب المصرف فتنبه الحارس وتعرض لهم.. فإنبرى له أحد أفراد العصابة، أعرفه بشخصه، ورأيته رأي العين،

وقد طعن الحارس المسكين بمدية طعنة أردته قتيلاً، وأتم اللصوص عملهم وانتهَبوا الخزانة وانصرفوا، وانصرفنا... يا للكارثة!. إنها جريمة سرقة بأكراه، اقترنت بقتل عمد... انه الإعدام...إنها المشنقة لا أكثر ولا اقل... ما مركزي في كل هذا... انا في نظر القانون شريك من غير جدال فقد لازمت العصابة في كل ادوار الجريمة: من اعمال التحضير إلى اعمال التنفيذ... من أول التصميم الجنائي إلى القتل واستلاب الخزانة في امان الله... انصرفت إلى شأني أُفكّر في الأمر... وانصرف زملائي بالغنيمة يقتسمون النقود.. وجاء الغد، وإذا الصحف كلها تنشر بالحروف الطويلة العريضة: (جريمة مروعة فظيعة)! وجد رجال الشرطة في البحث، وانهمك رجال النيابة في التحقيق، ووالت الصحف ملء الأعمدة بأخبار الحادثة وتصوير ظروفها... وجاءوا بالكلب (هول)، واخذت البصمات، وأجريت المعاينات، وأُلقيَ القبض على كل من حامت حوله الشبهات...

كل ذلك كنت أطالعه في حجرتي باسماً هادئاً. كأني أطالع قصة بوليسية خيالية؛ بل إني كنت أتتبع كل ذلك ضاحكاً أحياناً للفروق الكبيرة بين ما حدث بالفعل، وما تصوّر المحققون أنه وقع. إنها لذة فنية أحسستها لأنها لأول مرة وانا أرى الواقعة الواحدة من وجهين: الوجه الحقيقي الذي لا يعرفه غيري وافراد العصابة، والوجه الآخر الذي يُنشَر على الناس في الصحف... هنا ينكشف الستار أمامي على لعب العقلية البشرية وعملها في تكييف الحقائق.. وهنا أتمتع متعة طارح الأحجية أو (الحزّورة) المالك مفتاحها، وهو يستمع إلى تخبطات وتكهّنات الآخرين...فأمتحن ذكاء الطبيب الشرعي، وحذق البوليس السري، وفطنة القائمين بالتحريات..

ولقد ابتسمت عندما قرات أنهم قبضوا على شقيق زوجة الحارس القتيل، لحدوث مشاحنة بينهما في الليلة السابقة على الجريمة، بخصوص سلوك الزوجة المريب...

ومرت الأيام وزج في السجن بكثير من الأبرياء رهن التحقيق، ثم خفت صوت الحادث رويداً رويداً، فلم تعد الصحف تعني به... وأشارت صحيفة آخر الأمر بأن التحقيق كاد يُغلق، وأن القرآئن كلها متجهة نحو شقيق الزوجة، وأن التهمة قد وجهت إليه؛ لأن صحيفة سوابقه بها جرائم مماثلة...

ولأنه متصل – بالحارس فهوأقرب الناس إلى العلم بمسالك البنگ وأسراره... ولقرائن أخرى من هذا القبيل إجتمعت كلها وإنصبَّت على رأس هذا المتهم البريء.

****

هنا تيقّظ ضميري الإنساني... وجعل يهتف بي أن من واجبي التبليغ في الحال، وكشف النقاب للبوليس عن حقيقة الامر... فنهض ضميري الفني معارضاً مؤكداً أن واجب الفنان هو السكوت.. وإحتدم الجدل بين الضميرين، في الحوار الآتي:

الضمير الإنساني: أتساءل، كيف تسكت وقد شاهدت بعينيك رجلاً لا ذنب له يسقط مضرّجاً بدمائه تحت مِدية مجرم وحشي؟..

الضمير الفني: حقاً... لقد كان منظراً فنياً رائعاً...

الضمير الإنساني: إني لم أنم منذ تلك الليله.. ولا يمكن أن أنام قبل أن يُقبَض على الجاني الحقيقي... وإني أتوسل إليك أن تريحني وتساعدني على تحقيق العدالة.. هلم بنا نخبر البوليس.

الضمير الفني: أنا... لم أرَ شيئاً أبلّغ عنه.

الضمير الإنساني: إنك رأيت الجريمة من اولها لآخرها.

الضمير الفني: إني رأيتها كفنان لا كشاهد إثبات.

الضمير الإنساني: وما الفرق؟...

الضمير الفني: ألا ترى الفرق؟...

الضمير الإنساني: إنك رأيت على الأقل المجرم الحقيقي، وتستطيع ان تبوح بإسمه.

الضمير الفني: لن أبوح بشيء..

الضمير الإنساني: الخلق القويم يدعوك أن تبوح لتنقذ متهماً بريئاً، وتنتصر لذلك الحارس المسكين الذي هُدر دمه في غير ذنب إلّا قيامه بواجبه الشريف..

الضمير الفني: إنك تعلم ان الخلق القويم هذا شيء من شأنك أنت.. أما أنا فلا أعرف غيرالعمل الفني القويم...

وإني لم ادخل بين هؤلاء اللصوص بإعتبارى مخبراً سرياً يبلغ عنهم ولكني دخلت بينهم بصفتي فناناً يدرس أحوالهم...

ولقد وثقوا بي وأطلعوني – لهذه الصفة – على ما لا يحسبون ان يطلعوا غريباً عليه، فهل من حقي أن أخون هذه الثقة؟..

الضمير الإنساني: حقاً... يا لها من ثقة غالية... تلك التي تنالها من أيدي القتلة والمجرمين!...

الضمير الفني: الثقة هي الثقة؛ سواء نلتها من شريف أو أثيم...إن قيمة الجواهر لا تتغير بتغير الأيدي التي تمنحها...

الضمير الإنساني: ما أبرعك في صياغة الكلمات...ولكن هذا لايمنع من أنك الآن في نظر المجتمع والقانون مرتكب لذنب لا يُغتفر إن لم تبادربتصحيح موقفك.

الضمير الفني: موقفي الآن صحيح ولا غبار عليه...

الضمير الإنساني: هذا رأيك انت وحدك... ولكن هب أنه قُبض عليك مع شركائك متلبسين في مكان الجريمة...أكانت تشفع لك كل هذه الفلسفة؟.

الضمير الفني: هذا سؤال توجهه إلى القضاة، لو أنه قُبض علينا... ولكن الذي حدث حتى الآن هو أنه لم يُقبَض على أحد منا..

ومع ذلك فالقضاء يعرف ظروف اشتراكي في هذا الأمر، والبواعث التي دعت اليه، وهي كلها شريفة.

الضمير الإنساني: أرجو منك ألا تتكلم عن الشرف، لقد ظهر لي انّا غير متفقين على معنى هذه الكلمة.

الضمير الفني: تريد أن تقول إني لست شريفاً؟...

الضمير الإنساني: من الصعب أن أعدّك كذلك وأنت تنام ملء جفنيك مرتاحاً مطمئناً لا يزعجك صراخ ذلك الدم البريء الذي ينادي بإحقاق الحق وإقرار العدل، إنك لا تريد أن تخون السفّاكين الذين إستامنوك وتريد أن تخون المجتمع الذي وضع في قلمك أمانة الدفاع عنه.. أنت أيها الكاتب الحر!..

فيمَ عملك ورسالتك إذن إن لم تكن في النهوض ذائداً عن حرية الأفراد ودمائهم، مناصراً للعدالة.. معيناً للحق والقانون؟!...

الضمير الفني: يا لها من بلاغة... أنت أيضاً تعرف كيف تؤثر في النفوس بمثل هذه الكلمات؟!...

الضمير الإنساني: أتستطيع أن تكذّب حرفاً واحداً مما أقول لك؟...

الضمير الفني: أنا لا أكذّب ولا أثبت... أنا أصوّر وأعبّر... الشرف عندي هو في صدق التصوير والتعبير.

الضمير الإنساني: أهذا كل واجبك ازاء البشرية؟...

الضمير الفني: هذا ليس بالشيء القليل...ولأفسر لك الأمر باللغة التي تفهمها:

{إن الكاتب الفنان يؤدي رسالته إلى البشر ويعاون في إصلاح المجتمع بمجرد كشفه خبايا بيئاته المختلفة بريشة صادقة، ودراسة أسرار النفس الإنسانية والغرائز البشرية، وإبرازها للعيون والعقول...

إن عملي يماثل عمل العالم الكيميائي وهو يدرس جراثيم الأمراض تحت مكروسكوبه. لماذا لاتذهب إلى هذا العالم وتقول له: –

(أقتل هذه الجراثيم في الحال فهي تستحق الإبادة؟... إنه لا شك يُجيبك باسماً: ليس مهمتي أن أبيدها الآن هكذا... إنما ينبغي لي أن أعيش بينها،

أراقبها وأسجل ظواهرها، فإذا عرفنا خواصها وخيرها وشرها، أمكن العلماء فيما بعد أن يستخرجوا لها العلاج، ومنها الترياق.)..}

أنا أيضاً أقول لك الآن:

– دعني قليلاً بين جراثيم المجتمع من أهل الشَر والعُهر والفُجر، أضعهم تحت (مكرسكوبي) ثم أعيش بينهم أرقبهم، وأُدوّن ما يبدو لي منهم..

الضمير الأنساني: لكنهم يعيثون فساداً كما تعلم!؟....

الضمير الفني: المكلفون بمطاردة الجراثيم هم رجال الصحة ورجال البوليس.. أما رجال العلم والبحث، فهم يحافظون على نماذج جراثيمهم في المعامل.

الضمير الأنساني: آه... إني لأعجب كيف أن شريفاً مترفعاً مثلك يستطيع أن يرى القبح والفساد، وأن يعيش راضياً مطمئناً بين هذه المناظر والظواهر؟!...

الضمير الفني: هنا بالضبط نبل مهمتنا، ألا ترى ذلك العالم الذي يحقن جسمه بلقاح الجراثيم. ويعرض حياته كلها للخطر من أجل الرغبة في البحث والاستكشاف خدمة لعلمه وللأنسانية فيما بعد؟... نحن أيضاً معشر الكتاب والفنانين، نصنع أحياناً مثل ذلك في سبيل الفن والمجتمع والبشرية...

الضمير الإنساني: قد يكون هذا حقاً... ولكن برغم كل ذلك أرى واجبك كمواطن شريف أن تبلغ البوليس...

الضمير الفني: واجبي عدم التبليغ...

الضمير الإنساني: بل الواجب أن تبلّغ كيلا تعطي الناس القدوة السيئة..

الضمير الفني: ليس للناس أن يقتدوا بالفنان في كل تصرفاته.. كلا لن أبلّغ...

الضمير الإنساني: بلّغ

الضمير الفني: لن أُبلّغ

وأضطرب رأسي تحت ضربات تلك المعركة العنيفة، إرتميت على فراشي أطلب النوم تخلصاً من عذاب نفسي وما يدور فيها من حرب ضروس...

ولكنى لم أغمض جفناً طول ليلي...ولم يفتر الدوي في آذني لحظة بهاتين الكلمتين الملعونتين ((بلّغ.... لاتبلّغ... بلّغ...لاتبلّغ...).

حماري ومنظري

قال لي حماري وهو يتأمل جندياً شاباً، مر بنا في طريقه ولا ريب إلى ساحة القتال، ولفت أنظارنا ببهاء طلعته:

– أنظرالى هذا الجندي الفاتن!... ماذاعليه بربك لو اعطاك رأسه تفعل به أنت هنا الأفاعيل، وأخذ رأسك القبيح هذا ليموت به في الميدان الغربي؟...

فلم أرد عليه... فتلك مسألة طالما فكرت فيها من قبل بيني وبين نفسي.. نعم. طالما ندبت سوء حظي ونصيبي وبكيت وإشتكيت؛ لأن السماء خلقتني هكذا شكلاً وموضوعاً... ولكن فكرت وتأملت، وقلت عن نفسي ما قاله الفيلسوف (باسكال) عن (كليوباترا)،:

(لو أن الله جعل لي أنفاً أصغر من أنفي هذا لتغير وجه حياتي كلّه أجمل تغيير... ولكن الله ضن على مثلي بهذه المنحة الصغيرة وهي لاتكلّفه كثيراً ولا قليلاً...)

وكنت كلما ذهبت إلى حلاق وأبصرت إلى جانبي رجلاً بديع القسمات أخاطب السماء قائلاً:

– لكأنك يا رب قبل أن تخلق هؤلاء المحظوظين قد وضعت بين أيديهم صناديق مملوءة بمختلف أصناف: الأنوف والشفاه والآذان والعيون؛ ليختاروا من بينها ما لذ لهم وطاب...

أما انا وأمثالي فينبذ إليهم ما بقي بعد ذلك في قعر الصناديق من (كناسة) أيدي أصحاب الحظوة والنصيب.. قلت ذلك كثيراً ورددته. طويلاً...

وإذا أنا أسمع ذات ليله صوت ملاك من الملائكة يهبط عليَّ وأنا بمفردي في حجرتي صائحاً بي ;

– (فضحتنا... السماء ضجّت من تشنيعك وتشهيرك!...)

– عفواً يا سيدنا الملاك...

– اسمع يا أستاذ... لقد جئت اليك لأحقق كل طلباتك؛ حتى لا تتهمنا بعد ذلك بالتحيز أو المحسوبية أو غير ذلك من الصفات غير اللائقة...ما رأيك لو خلعنا عنك هذا الشكل الذي لا يعجبك، وأعطيناك غيره كما تشاء وتحب؟!...

– وكيف يحدث ذلك؟...

– تموت ثم تولد مرة أخرى في ثوب جديد... وإن لك علينا لعهداً وميثاقاً أن نفتح بين يديك كل تلك الصناديق التي تتحدث عنها؛ لتختار أنت أولاً ما يحلو لك قبل كافة مواليد العالم.

– ومن يضمن لي إذا مت أن أولد من جديد؟..

– عجباً... أَوَ تشك في وعد أهل السماء!...

– كلا ولكن هل أنت تفعل هذا بإذن...؟

– بالطبع.. وهل يحدث شيء بغير إذن الولي العظيم!...

– ان الله حقاً لغفور رحيم.. وا فرحتاه... إنه سيعطيني كل ما أريد

– كل ما تريد وكل ما تتخير لنفسك...

– هذا شيء جميل..إجلس إذن يا سيدنا الملاك و لنتحدث قليلا.. ولا بأس من أن تشير عليَّ بما ينبغي أن أختار...فأنا أخشى أن تُبهَر عيني عند فتح الصناديق، فلا أستطيع أن أميّز الجيد من الرديء... إني أذكر إختياري دائماً لألوان

(الكرافاتات) و(الجوارب)...وحيرتي كلما فتح لي صندوق منها لإنتخاب أحسنها.. وإني لأغرق في ترددي مرة ثانية إلى أن ينتهي بي الأمر إلى تخيّر أقبحها وأرذلها دون أن أدري أو أنتبه.

– أَوَ تريد مرّة أخرى أن تحملنا مسؤولية إختيار أنفك وفمك!؟ لا... لا يا سيدي الأستاذ...أَوَ نسيت أنك منذ قليل كنت حضرتك تطعن في ذوقنا، وتتهمنا في نوايانا!!؟...

– حاشا لله... أنا لم أطعن ولم أتهم... إنما كنت أتظلّم وأستعطف...ولقد تفضلتم فإستمعتم إلى ظلامتي، فأكمل فضلك معي وإمكث نتبادل أطراف الحديث...

– مكثت...تكلم...إني مصغٍ إليك أيها الأستاذ!..

– أيها الملاك... ما رأيك في أن أطلب أن يكون لي شكل (كلارك جيبل)...؟

– بديع جداً...

– أليس لك إعتراض... فلنتفق من الآن... والشرط نور...

– موافق جداً؛ – بل أكثر من ذلك – أحب أن ألفت نظرك إلى أن من حقك – بناءً على إتفاقنا هذا – أن تطلب ما شئت، لا من حيث الشكل وحده؛ بل الأخلاق أيظاً.. ثم الثروة كذلك.. – عجباً...الاخلاق والثروة؟...

– ولِمَ لا؟...

– إذن فأنا أطلب أن تكون لي ثروة ((روكفلر))...

– معقول جداً...

– اليس كذلك؟...

– نعم...وأخلاق من؟!...

– آه... حقاً.. دعني أفكر قليلا... أظن أنه لا يوجد خير من أخلاق (غاندي)... نعم... إنّي أطلب أن تكون لي أيضاً أخلاق غاندي...

– عظيم جداً..شكل (كلارك جيبل) وأخلاق (غاندي) وثروة (روكفلر)...

– ألا تظن أن هذا كثير؟...إني أبالغ بلا شك...إنها قلة ذوق مني... إني أستغل عطف السماء أكثر من اللازم..

– كلا يا أستاذ... مطلقاً.,..لاشيء بكثير على قدرة الله... إن الله إذا شاء أعطى بغير حساب...

– اللهم شكراً...انا الذي طالما تمنى أن يُلغى الحساب من الوجود ساعة تمتد يد الله نحوي بالعطاء... ها هي ذي الساعة أقبلت...

– أَلَكَ طلبات أخرى؟...

– لا يا سيدي الملاك.. أَوَ بقيَ شيء يُطلَب: شكل (كلارك جيبل) وثروة (روكفلر) وأخلاق (غاندي)... أَأُريد أن أنهب الكون؟!... يا للمعجزة... إني سأغدو أعجوبة ولا شك فوق هذه الأرض.. إني سأصنع العجب العُجاب...

– سوف نرى...

– وهل هناك شك في أني أملك من الوسالل ما أصنع به الأعاجيب؟...

– أي نوع من الأعاجيب؟...

إنّا لم نتفق بعد على إسمك وعملك؟...

– إسمي وعملي..

– بالطبع.. يجب أن يكون لك إسم وعمل في حياتك الجديدة.

– حقاً... هذا ما نسيت أن أفكر فيه...

– ثم يجب أن تكون لك جنسية!... أَمِثل (جيبل) و (روكفلر) أمريكياً، أم مثل غاندي، هندياً هندوسياً. أم...

– هندياً هندوسياً... ما هذا الكلام أيها الملاك.. ومتى أتعلم هذه اللغة...لا...لا يا سيدي... بسِّط كل هذه الإجراءات، وأتركني كما أنا مصرياً؛ وليكن إسمي (توفيق

الحكيم) كما أكون الآن...

– لا بأس في ذلك ولا ما نع لدينا مطلقاً... وعملك؟... هل تريده أيضاً أن تبقى كما أنت؟...

– طبعاً.. طبعاً.. وهل يمكن أن يكون (توفيق الحكيم) شيئاً آخر في الحياة غير ذلك

– آه يا سيدي الأستاذ.,. سوف نرى... سوف نرى...

– نرى ماذا؟.. أنك تُخيفني بهذه اللهجة المبطّنة بالشك والريبة...

– لا تخف...إني ما جئت لأخيفك...أنما أنا هنا الآن لأُنيلك ما تشتهي...

ولكنك أردت أن نتجاذب أطراف الحديث، وقد جرّنا الكلام إلى ما يعنيني وإلى ما لايعنيني.. وإني لأرى الفضول يدفعني إلى أن أوجه نظرك إلى أمر.. هل تسمح؟!.

– العفو يا سيدي الملاك.. تفضل.. وجّه نظري إلى حيث شئت...

– هل تتصورما سوف يحدث غداً يا (توفيق الحكيم) وقد أصبح لك شكل (كلارك جيبل) وتصوّف (غاندي) وثروة (روكفلر)؟....

– ماذا سيحدث؟...

– تخيل... تخيل يا سيدي الروائي...

– تخيل أنت ياسيدي الملاك...

– إذا سمحت لي فإني أقول لك: إن الذي سيحدث هوأن شكلك الجديد الجميل سوف يجعل كل الجميلات يرتمين على أقدامك...

– الله يسمع منك بجاه النبي !!..

ولكنك... حيث أن لك تصوّف (غاندي) فإنك لن تلتفت إليهن.. وستقنع من الحياة كلها بتلك (العنزة) وتحلب من لبنها وتشرب...

– وهل هذا معقول!...

– وعند ذلك تنصرف عنك الجميلات يائسات ساخطات، متسائلات عن كنه

هذا المخلوق الغافل عن جماله، القانع بعنزته وصومعته وخياله...

– معهن حق.. هذا مخلوق يستحق الشنق!...

– هذا هو الجمال مع التصوّف...

– لا... يا سيدي إحذف االتصوّف من فضلك...

– إذن فليكن الشكل (كلارك جيبل) مع أخلاق مَن؟..

– أخلاقي أنا تكفي...

– أخلاقك كما هي الآن!؟... عظيم...إذن فلتكن أنت بالشكل الجميل وثروة (روكفلر).... أتدري ماذا سيحدث؟.. ستحيط بك جميلات الأرض حباً في صورتك وطمعاً في ثروتك..

– أهلا وسهلا، وأنا لا أتمنى على الله ولا عليك أكثر من ذلك..

– ولكن... بما أنك تريد أن تبقى كاتباً روائياً... فأني أظن من الصعب عليك أن تجد وقتاً تتخلص فيه من أذرع النساء؛ لتجلس أمام الحبر والورق... وإذا وجدت الوقت فلن تجد الدافع الذي يحفزك إلى العمل...*أين في تاريخ الأدب والفن ذلك المليونير الوارث* الذي *يحني ظهره ليكتب أو يخلق*... إن لذة الفنان هي في أن ينتج ويقوّم نتاجه بعد ذلك بالذهب أو بالمجد... هو الذي يوجد المال بفنه...

أما إذا وجد المال قبل ذلك عن غير طريق فنه، فأن نصف لذة الخلق الفني تضيع ونصف الحافز على الإنتاج يذهب.. المليونير الذي أصبح فناناً عظيماً غير موجود. ولكن الموجود هو الفنان الذي قد يستطيع بفنه أن يكون مليونيراً...

– آه يا سيدي الملاك.. إذن لا ضرورة لثروة (روكفلر)؟!...

– فكر في الأمر يا سيدي الأنسان.. ربما كنت غير مصيب.. فشؤون الفن تعرفها أنت أكثر مني... إني –كما تعلم – لست فناناً...أنا ملاك فقط...

– العفو.. العفو... إن رأيك في الحقيقة فيه شيء من الصواب...إننا لا ننتج في

الفن من أجل الثروة؛ أو على الأقل ليس من أجلها وحدها – ومع ذلك فما ألذ طعم المال الذي يأتي ثمرة الفن... حقاً... إنى لأحس هذا الشعور دائماً... ما أتفه المال الذي يأتيني من غير طريق فني...

– أرأيت اللذة التي تُحرم نفسك إياها بطلبك ثروة تأتيك من السماء....

– نعم... نعم.. إحذف ثروة (روكفلر)...

– إذن فليكن لك فقط ما طلبت، شكل (كلارك جيل)...

– وهذا يكفيني، ولا أطلب غيره...

– عظيم... ستبقى أنت كما أنت، ولكن في صورة جميلة، وطبيعي إنك ستكون محبوباً من الحِسان...هذا لا مفر لك منه، ولا حيلة لنا فيه.

– وما الضرر يا سيدي أعزك الله؟!...

– لا ظرر... ولكن...

– ولكن ماذا....أرحني بربك وأرحمني...

– فَنّك؟ ;. أيبقى هو فنك أم يصبح فن رجلاً آخر.. إنك تعلم أكثر مني أن الفن يتغير بتغير طبيعة القلب الذي يخرج منه.. إنه كالماء الذي ينبثق من الينابيع... فهو حاراذا نبع من بقعة الزلازل والبراكين، بارد إذا صعد من أرض الأمن والاطمئنان...

– لعل الأصلح أنك لا تريد أن تفهم... لكن لا بأس من أن أوضّح لك، ولن آتي بكلام من عندي...

حسبي أن أسوق اليك كلمة أنت نفسك قائلها وواضعها على صدر كتاب من كتبك : (إن صاحب الحياة السعيدة لا يكتبها.. بل يحياها). – تريد أن تقول إنه إذا كان لي شكل (كلارك جيبل) وحياته السعيدة فإني سأحياها ولن أكتبها...

– لست أنا الذي قالها؛ بل أنت الذي قلتها ونشرتها...

– وما أدراك أني لم أخطيء ولم أغلط... أنا رجل كثير السهو والغلط... لماذا لا

أجرب، دعني أجرب يا سيدي العزيز... ماذا يضيرنا لو جربنا... إن التجربة وحدها هي التي تلهمني وتهديني... ولقد عزمت على أن أجرب بنفسي كل شيء، وأن أهبط وأرتفع، وأنهض وأقع في أجواء الحياة والمجتمع، فامنحني شكل (جيبل) ولا تحرمني هذا الطلب الوحيد عافاك الله وأبقاك...

– لا تخدع نفسك.. أو اخدعها وأنا غير مسئول عن النتيجة... خذها مني كلمة صادقة: إذا تغيّر شكلك تغيّر تفكيرك وتغيّرت نظرتك إلى المجتمع والحياة، وأصبحت شخصاً لاعلاقة له بتوفيق الحكيم؛ لا من بعيد ولا من قريب...

– أحسن... وأنا لا أريد أن تكون لي بحضرته أي علاقة..

– هذا شيء آخر... ولكننا إتفقنا من مبدأ الأمر على أن تحتفظ بأسمك وشخصك وعملك...

– وبعد؟...

– و بعد فإن الله لم يترك شيئاً للمصادفة... إنه خلقك هكذا لتنتج فناً هكذا .... فإذا تغيرأنفك تغير فنك!...

– وبالإختصار...أيها الملاك...

– بالاختصار أيها الأستاذ... ليلتك سعيدة، *وأحسن ظنك بحكم ربك* الذي لم يخلق شعرة من شعر رؤوسكم عبثاً... وهكذا إنتهى الحوار بيني وبين الملاك المِفضال ، وأنا كما أنا لم أَنَل شيئاً ولم أربح جديداً... وتحرك الملاك ليرتفع من حجرتي عائداً إلى السماء... فصحت به مستوقفاً:

– لحظة واحدة من فضلك... يظهر أن الحائل بيني وبين كل خير هو هذا الفن المزعوم، أنا يا سيدي متنازل عنه...

– تنزل عنه من أجل شكل جميل!؟..

– المسألة في نظري تستحق المقايضة...

– أنت وما تريد... ولكنها أنانية منك أن تضحي عملك الذي تؤدي به خدمة عامة في سبيل صفة شخصية تنال بها متعة خاصة..

– أنانية.. أنانية.. أنا راض بهذا الوصف.. لكن غيّروني.. أنا طالب التغيير.. أنا حر في نفسي ولا أحد شريكي.

– لك شريك...هو وطنك...فإذا وافق أهل بلادك على أن يؤخَذ من بينهم (فنان) ليستبدل به (دون جوان) فلا مانع لدينا من اجراء عملية الإستبدال..

وهكذا عقَّد لي الإجراءات بدل تبسيطها.. وارتفع سريعاً قبل أن ينتظر مني جواباً.. وترتكني وحدي كما كنت أمام ورقي وحبري وحماري..لم أتقدم أو أتأخر.

حماري و صورتي

دخل علي حماري يقول متعجباً:

– بلغني اليوم أن صورة لك (زيتية) أو(باستيل) لستُ أدري على التحقيق، قد بيعت بمائة جنيه... فمن هوهذا المثري المسرف المتهور الذي أقدم على دفع هذا الثمن فيك؟!...

فقلت له هادئاً:

– هذا المثري المسرف المتهور!... هذا ما ازيح لك عنه الستار بعد قليل...

ولأبدأ القصة من بدايتها فأقول لك:

– إني كنت جالساً ذات يوم حيث إعتدت الجلوس، وإذا مصوّر أقدر مواهبه هو (صلاح طاهر) جاء يقترح على رسم صورة لي كما صنع للعقّاد، وأراني نسخة فوتوغرافية للوحة العقاد، فقلت له:

((هذا حقاً بديع، ولكن العقّاد له من حسن سمته ما يستحق التصوير، ومن عمق حسه ما يستوجب التعبير، أما انا فماذا يغريك بتصويري!...

وقصصتُ عليه حكاية نُقلت إليَّ عن مَثّال خطر له أن ينحت لي تمثالا ولم يكن قد رآني، فسأل عن مكاني، فوصفوه له، فجاء ومر أمامي دون أن أشعر،

ثم عاد إلى أصحابه يقول لهم في خيبة أمل: إنه بعد أن شاهد شكلي عَدَلَ عن صنع التمثال.. ولكن هذا المصور لم يحذ حذو زميله النحّات، وأصر على عزمه... ونظر ملياً إلى جلستي بعصاي وقال:

– لا تتحرك... هكذا أضعك على لوحتي كما أنت الآن...،

وبدأ عمله بالفعل بعد أن هوَّن عليَّ كل مشقة، وأعفاني من كل كلفة، وتركني أسبح في ملكوتي – كما يقول – وأنسى نفسي وأنساه...

وفرغ من الصورة... وكان الشرط الذي بيننا قبل أن يبدأها هوأن ينصرف بها بعد إتمامها... وقد عجب لذلك أول الأمر... ولكني سألته:

– (ألم يتفق لك أن صورت حماراً (ولا مؤاخذة) أو حصاناً أو غراباً؟... فقال (إتّفَقَ لي كثيراً)... فقلت:

– هل كنت تعطي هذه الصورة لاصحابها المذكورين؟.

فقال: (بالطبع لا)...

فقلت:

– (أنا أيضاً إفعل معي ذلك)... فوافقني كل الموافقة...ولما عرف فيما بعد أني أعيش مجرداً من كل طرف أوتحف أو ذكريات...حتى كتبي التي أنشرها لا احتفظ بنسخة منها لنفسي عَذَرني.. ثم قال:

– إني في الحقيقة كنت عازماً على عرض هذه الصورة للبيع في معرضي الذي سأقيمه قريباً...

– للبيع؟.. ومن هو هذا المجنون الذي يشتريها؟

– طبعاً لن تكون إمرأة... هذا مفهوم....

– الا إذا اشترتها لتبصق عليها صباح مساء... وإنصرف المصور بالصورة ونسيت أمره وامرها.. وانتهى خبرها عند هذا الحد... وإذا الصاوي يخبرني ذات يوم أنه رأى اللوحة معروضة في ستوديو الفوتوغرافي (خورشيد)، وانه أُعجِبَ بها أعجاباً شديداً...

والصاوي صاحب ذوق فني سليم بالفطرة والسليقة، وأنه ليبغ أحيانا في حبه لاقتناء كل جميل من التحف والصور مبلغ التهور...

ففي حجرته صورة لـ (جوزفين بيكر) ليست سوى مجرد نسخة عن أصل معروف دفع فيها عشرين جنيهاً... ولقدعلمت انه كان في باريس يشتري ما يفتنه من التحف بالتقسيط، إذ كان طالب علم يعوزه المال ولم يكن بعد صاحب أرض تدر عليه العسل والعنب والفول السوداني... فلما أثنى على الصورة صدّقته...ثم عرجت بالحديث إلى مجرى آخر.. فلقد إحتدم بيننا منذ يومين خلاف حول أمر غاظني منه كل الغيظ، وأطلق لساني بتأنيبه أعنف التأنيب...

ذلك أنه كان قد نوى شراء وقّادة أو (ولّاعة) سجاير للجيب، رآها في (فترينة) جواهري معروف ثمنها (٢٨جنيها)؛ فإتهمته بالسفه الذي يوجب الحَجْر، فلم يرعو... وإذا به ذلك اليوم يصارحني بأنه لم يقوعلى إغرائها، فإشتراها.. وأخرجها من جيبه مغتبطاً وأوقد بنارها سيجاره وأنا أنظر اليه على (نار)...

فما أن رآني على هذه الحال حتى إبتسم وقال:

– تُسمي هذا سفهاً وإسرافاً وجنوناً...فما بالك لو عرفت ما هو أدهى؟!..

– ماذا أيظاً؟.. لم يبق إلّا إنَّك اشتريت لإمراة جوارب بمائة جنيها..

– دعها مفاجاة...لن أقول لك الآن... وتحدثنا في أشياء أخرى... وتشعب بنا الحديث... وقبل انصرافنا قال:

– إني قد أعددت لك بعد غد وليمة عشاء...

– وما الموجب؟...

– أليس من حقي أن أحتفل بك؟..

– إياك أن يكون غرضك ان تقترض مني نقوداً؟!... فقهقه عالياً... وإفترقنا... ومضى اليومان، وذهبت إلى وليمة الصاوي... فماذا وجدت؟... وجدت مائدة منصوبة بألوان الطعام والشراب... ولكن لم يكن هذا هو المقصود...

فقد كان بيت القصيد تلك المفأجاة التى سبق إليها التلميح:

تلك صورتي معلقة في صدر المكان، محاطة بإطار بديع من خشب الأرز النفيس... والى جانبها مصوّرها صلاح طاهر يقول لي

– هذا هو المشتري: الأستاذ الصاوي...دفع فيها مائة جنيهه، فضلا عن الإطار الذي كلفه عشرة جنيهات...ومنحني فوق ذلك حق عرضها في المعرض، لمجرد العرض...

فغمغمت كالحالم – (المشتري)؟!...

فقال الصاوي باسماً (المجنون)!.. في الحق أني فوجئت وقد أسفر الموقف عن جد لا هزل فيه.. وقد تأثرت فعلاً كما تأثر معي صديقنا الزيّات – صاحب مجلة الرسالة – وكان حاضراً – وتركنا المزاح وواجهنا الأمر بعين أخرى..

واستأنف المصور قائلاً:

– إن الصاوي، وهو يدفع الثمن نقداً وعدّاً دون أن يساوم أويمارس – كان يخشى شيئاً واحداً، هو عدم إرتياحي أنا لإحتفاظه هو بالصورة، ومنشأ هذا القلق هو علمه بأن صورتي الزيتية التي صنعها لي (صبري) منذ عشرة أعوام؛ قد إشترتها الحكومة لوضعها في متحف الفن الحديث، فهو إذن كان يحسبني أفضّل لرسمي الجديد ذلك المصير المجيد... وهو موافق على هذا التفضيل، ومستعد أن ينزل عن ملكيته للوحة إذا كانت تلك إرادتي... فماذا أقول في كل ذلك؟... لقد كانوا يتحدثون بهذا حولي وأنا شارد في عالم آخر... لقد خيل لي أني لست في مصر بل في أوروبا... فهناك نجد أمثال هذا التقدير من الزميل للزميل.. فهناك تسمع حقاً أن صورة (ويلز) تُزيّن حجرة (برناردشو) أوأن (موروا)، يضع كتاب عن زميله (فاليري) ليُيَسِّر على قرّائه فهم ما دق من آرئه... أما في مصر فما نعلم إلا أن فلاناً طعن في زميله فلان..

وان هذا الكاتب شتم ذاك...وقد إعتنقَت صحافتنا هذا الأسلوب، فجعلت تغري

شخصيات الفكر والسياسة بعضهم ببعض للمباريات العلنية في أحدث ألوان السباب والإقذاع والإسفاف، حاسبة بذلك أنها تسر قرّاءها، كما كان العوام يسرهم قديماً تناقر الديوك وتناطح الخراف...

حتى فسدت أذواق قرّائنا وانحطت مشاعرنا، وسفلت نفوسنا، وأصبحا نحن أهل الشرف ننظر إلى العاطفة الرفيعة – إذا ظهرت – كأنها أعجوبة الأعاجيب، وإلى العمل النبيل – إذا فلت – كأنه من الخوارق التى نستكثرها على طبيعتنا... هذا هو المرمى الذي حفّزني عل ذكر هذا الموضوع فالناحية الخاصة منه ليست سوى وسيلة ومغزى للجانب العام... إنه درس ومثال أرجو أن يُعيد إلى قلوبنا الثقة بأن في بلادنا أحياناً روحاً لا يقل سموّاً عمّا في غيرنا من البلاد العظمى...

حماري والنفاق

قال لي حماري وقد رآني أتهيأ للسفر ذلك الصيف إلى رأس البر: أتذهب وحدك؟.
فخجلت منه ودعوته؛ لأن الوفاء يأبى أن أتركه يُصلى حر القاهرة وأمضي أنا بدونه إلى المصايف... ولقد نزل مثلي ضيفاً معززاً مكرماً على (عِشّة) أحد الأصدقاء، وأفرد له مكان بجواري... وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا... ويذهب معنا كل صباح إلى خيمتنا، التى نُصِبت على الشاطيء، وينظر كما ننظر إلى افواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة، كأنها معروضات الفترينات، قد وضعت فيها محركات تُسيّرها أمام أعيننا فوق الرمال...
وكان يحلو لي أن اغرق صامتاً في مقعد بحري طويل مريح،
وكنت قد أوصيت حماري بالسكوت؛ فنحن هنا للراحة لا للكلام... وقد اذعن لرجائي فلم ينبس بحرف.. إلى أن جاء ذات يوم إلى (البلاج) رجل من معارفنا، له جسم قد ترهّل، وكرش قد برز كأنه (فنطاس) غاز، ومَرَّ يرتدي (الشورت) مع قميص قصير الأكمام فقلت له؛
-: يا لك من رشيق!..يا لها من رشاقة..وهنا لم يتمالك الحمار، وهمس قائلا لي
-: أحقاً تراه كذلك؟.
فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطاً:
- طبعاً أراه كذلك...ولماذا لا أراه كذلك؟!... فهمس الحمار لي وهو يتأمل قوام الصديق وقدّه من رأسه إلى قدمه:
- كيف لا أرى أنا ما تراه أنت!؟...

فقلت له مغيظاً:

– لأنك أنت حمار...

فأ جابني هامساً: – ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق؟!...

، وسارا معاً على الشاطيء، بعد أن يئسا من ذهابي معهما...فانا لا أحب المشي...وانفردت بحماري أصيح فيه:

– أنا منافق؟!... – مهلا...مهلا...أنا لا أقصد إهانتك...

– إفهم أيها الحمارأن هذا ليس نفاقاً، ولكنها مجاملة...

–: مفهوم.... إنها مجاملة... والمجاملة هي النفاق الصغير... هي كالجحش بالنسبة إلى الحمار... ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الإطلاق...إني تأملت نفسي ذات يوم وتأملتك وقلت: ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين ؟!.. نحن نأكل الفول، وأنتم تأكلون الفول... وإذا كنا نحن نحبه ممزوجاً بالتبن أوالنخالة، وأنتم تحبونه بالزيت أو الزبدة، فتلك مسألة مزاج... ولا يجب أن نسميه فرقاً جوهريا... إنما الفرق الأساسي حقاً بيننا وبينكم: هو أنكم تعرفون (النفاق)، ونحن لا نعرفه.. وقدعللت نفسي ومنيّتها بحلم جميل هو أن تُتاح لي الفرصة أن أرجوك يوماً وأتوسل اليك أن تعلمني النفاق.

– عجباً!... مَن علمك هذا الأسلوب الهاديء؟!...

– إني لست أهزأ...إني أقول الجد.. تلك عقيدتي:

لو أمكنني تعلم النفاق وإدخاله إلى فصيلة الحمير لأنقلبنا مخلوقات مثلكم...إني مؤمن كل الإيمان بهذا المبدأ... وإني أعمل سِراً على تنفيذه منذ زمن... فلا تقف في وجه مطامعي وآمالي... خذ مني كل شيء، وأعطني النفاق!..

– ماذا جرى لك؟... هل جُننت؟... هل أثّر في رأسك هواء البحر النقي وطعام مضيفنا الشهي؟!...

– رأسي بخير... ولقد سألتك شيئاً سوف يُحدث إنقلاباً في تارخ بني جنسي، ولكنك تبخل به علينا وتضن، فلن ألح أو أثقل عليك بعد الآن في الطلب!...

– أمرك غريب... أبخل عليك بماذا؟... أهو شيء عزيز نفيس أستكثره على مثلك؟ هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمة يحرص عليها الانسان!...

– أما أنا فقد *سمعت أن النفاق له قيمة كبرى في الأسواق العالمية*، *وأن أجود أنواعه يوجد في مصر*، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن...

– يظهر أنك إستقيت معلوماتك من مصادر خبيرة...

– لقد قيل لي: إن النفاق الطويل التيلة...

– ماذا تقول؟!...

– نعم... إنه كالقطن...ألا ترى هذا؟! ولعل السبب في تفوّقه وتميّزه بطول تيلته أنه يمتد إلى الطرفين: الفرد والجتمع؛ فمثلا من الجائز أن يعتنق الفرد رأيا مخالفاً للجماعة؛ فتنهض ضده الجماعة فيقبع في داره صامتاً... وهذا ما يحدث في كل بلد آخر... أما هنا فيحدث غير ذلك.. *فلقد أخبروني أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فإتهمهم الناس بالإلحاد*؛ فلم يكتفوا بالصمت بل قاموا في اليوم التالي يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمائم الخضر... وآخرين عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة؛ بل راحو يتزعَّمون حركات الحض على الورع، ونساء يرتكبن في السر الفجور، وينادين في العلن بالفضيلة.. وسياسيين قد خلق الله لكل منهم وجهاً واحداً؛ فصمموا هم لأنفسهم وجوهاً عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ... وأُسَر أوعائلات توزع فيما بين أعضائها المباديء والأحزاب، كما يوزع الله بين عباده القسم والأرزاق، ومرءوسين يداهنون الرؤساء على حساب الدولة، ورؤساء يراءون الشعب على حساب المصلحة؛ وسيدات يردن العبث واللهو ويقلن للناس انه البر والخير... وأهل دين يملئون

الصحف ضجيجاً حول الأخلاق، ويدقون طبلا ضد الرذيلة، وما يقصدون في سريرتهم غير التظاهر والإعلان... ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة، ويستثنون أنفسهم وذويهم.. هذا بعض ما يتعلّق بالطرف الأول وهو الفرد... أما الطرف الثاني وهو المجتمع فله. نفاقه أيضاً:

فقد بلغني في ذلك أنه ما من مجتمع في غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يُستقبَل الحاج القادم من الحجاز.... وهذا المجتمع يشمئز من اللص والآثم، والشرير والفاجر، ولكن لو إبتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة، أو أصاب ثروة، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضاً،

ويسقبله إسقبال الأمجاد الأبطال، بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المخجِل لهذا المليونير، والماضي المزري لذلك السياسي فلا يمنعه ذلك من حملهما على الاعناق.

هكذا يُرائي المجتمع الفرد، ويداهن الفرد المجتمع...ولا يدري أحد أيهما مصدر النفاق...لذلك قيل: أن النفاق يصل أحدهما بالآخر، فلا نعرف أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة... وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة... فما قولك في هذا... وهل تراني المِمْتُ بالموضوع؟

– إني أراك بحراً فيّاضاً، وأُدهَش كيف تسألني أن أعلمك النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو؟!...

– لا موجب للدهشة؛ فأنت تعرف أن العلم النظري شيء ووسائل التنفيذ شيء آخر... فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية في أي بلد؟!... وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم، ولكن ليس من اليسير أن أُحدِث مثله في مجتمع بني جنسي!..

– لست أرى في الأمر صعوبة... إنه في غاية البساطة... أنا مثلا صاحبك الذي تخافه وتهابه، ولك عنده مصالح ومآرب...انظر إلى وجهي: ألا تراه جميل الصورة؟.

– أبداً...

– لا تنظر بعين رأسك؛ انظر بعين مصلحتك!...

– لست أعرف لي سوى العين التي في رأسي...

– هذه العين إفقأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق....

– أفقأ عيني وأصير أعمى؟!

– هذا هو الشرط..

– وبماذا أرى الأشياء؟...

– بعينك الأخرى: عين مآربك

أن تفقأ عيونها التي في رؤوسها؟...

– في الحال...

– وأن تحول مجتمعنا إلى مجتمع من العميان؟!...

– بالضبط...

– وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك؟...

– و لِمَ لا؟... إذا كنا نحن قد قبلناه...

– إسمح لي أن أقول ذلك...

– صَه.... أعرف ما ستقول، ولا داعي للإهانة!....وهنا كان الصديقان قد أقبلا عائدين؛ فأومأت إلى حماري بالصمت...

غمزت له بعين رأسي وأنا أقول مشيراً إلى صاحبنا المترهّل مُنشِداً:

أهلا وسهلا بالرسالةِ كلّها

بالشورت والأكمام فوق الكرشِ!...

حماري والكفاح

قال لي حماري وقد ذهبنا نمضي الشطر الأخير من الصيف في الإسكندرية، ونُنعِم ساعة الأصيل بالسير الهوينا على الكورنيش؛

– الحق.. إني مغتبط ها هنا... أين المشي المريح فوق هذا الأسفلت الناعم من المشي في رأس البر، فوق الرمال التي كانت تغوص فيها حوافري؟!...

– صدقت...

– إني أراك لا تكره المشي هنا...

– أصبت...

– عجاً.. ما بالك ساهماً مُطرقاً!...

– أسكت أنك تحرجني مع اصدقائي... كلما مشيت مع صديق في الطريق ظن الناس أنه حماري!...

– وما ذنبي أنا إذا كان الناس يريدون أن يتملقوا أصدقاءك؟.

– أغلق فمك من فضلك، ودعني أنسى وجودك إلى جانبي لحظة!.

– سبحان الله في طبعك... ما هذا المزاج العكر، والهواء جميل خال من الرطوبة هذا العام، والبحر صافٍ،

والغيد في الإسكندرية حِسان... والنساء في السراويل والبيجامات بأحمرهن وأبيضهن كأنهن جوقة (بلياتشو) في (سيرك) متنقّل!...

– صه...لا تحدّثني عن النساء!....

– ألست أنت الذي دعاهنَّ إلى إرتداء هذه السراويل؟!.

– تلك فكرتك أنت أيها الحمار!..

– أيُعقل أن تخطر ببالي أنا فكر؛ حشر مثل هذه الأجسام البضّة المائعة في هذا النوع من الثياب؟.. انظر إلى هذه المراة البدينة وقد صرّت لحمها المترهّل صَراً في البنطلون وهو يأبى ان يتماسك؛ فصارت كأنها طبق (ألماظية) متفكك سائل؟..

– لا تبالغ...

– انظر بعينك... ما عليك إلا ان تنظر إلى هذا السرب السمين.

— أنا لا أنظر إليهن قط...

– يا للعجب!.. ما مِن مرة خطرت قربنا حسناء إلا ورأيت عينك تكاد تأكلها أكلا بلحمها وعظمها وثوبها!...

– كذّاب!...

– أتُقسِم؟....

–أُقسِم إني لا أنظر غير نظرة خاطفة وهذا حتى شرعاً كما هو وارد في كتب الفقه و الدين فقد جاء فيها:(*لك في الشرع نظرة واحدة لإحتمال أن يكون القادم أسداً*).

– وهل من المحتمل أن يقبل علينا أسد في هذا الكورنيش؟!.

– إخرس يا حمار ولا تجادلني!..

– هذا ليس جواباً مقنعاً...

– أفهم أن لكل زمان مخاوفه، ولكل مكان مخاطره؛ وتلك كانت المخاوف، في عهد العرب والبادية والصحراء.. أما في عصرنا الحاظر فقد تغير نوع الخطر، وإن لم يتغير المبدأ.. فبدل الوحش الهاجم أصبحت السيارة المسرعة..

– لست أرى سيارة أمامنا، ولكني أرى دبابة...

– دبابة؟!... أين هي؟...

–تلك المرأة المقبلة فلنُخل لها الرصيف ولنهبط إلى الطريق إذا أردنا لأنفسا السلامة!

– هذا أيضاً كما ترى نوع من مخاطرالعصر الحديث....

– والكواعب الفاتنات،كأنهن نسيم البحر، أعارته يد السحر أردية من أجساد الحور الخالدات!...

– ماشاء الله...الحمار إنقلب شاعراً....

– أجب ولا تراوغ... ما تقول في هذه الباقة المقتربة من الفتيات، ذوات المناديل الدمقسية المختلفة الألوان فوق شعورهن، مَن هوالبستاني العبقري الذي نسَّق هذا البهاء؟... أهي المصادفة التي جمعت بينهن على هذا النحو؟..ام هو التدبير السابق فيما بينهن، والاتفاق المبيَّت على إن يُصبِحن على الناس متفتحات في هذه الألوان الزاهيات؟!... تكلم... أنطق...ما هذا السكوت؟..

– هذا كذلك خطر من صنف آخر...

– بل هي متعة... بل هي فتنة.. بل هي النعيم...

– عجباً ماذا جرى لك أيها الحمار؟...

– يا إلهي! ما الذي صنعت في عامي من جلائل الأعمال لأستحق هذا التصييف البديع!..

– ما هذا القول السخيف؟... أَوَ كل هؤلاء المصيّفين قاموا في عامهم بأعمال يسحقون من أجلها هذه الراحة الناعمة؟...

– لست أتكلم عن هؤلاء (المصيفين)...إنما أتكلم عن نفسي بصفتي حماراً من أسرة الحمير...

– لاتهزأ بي، ولابجنسي بل إهزأ أولا بنفسك وبجنسك...فنحن فصيلة قد اشتهرت بالكد والجد، لقد عرفت ظهورنا أشق الأعمال، ولم تانف من حمل اخس الأحمال ... ما من ظهر فينا رفض (غبيط) السماد، وما من واحد بيننا تذمر من كثرة العمل

وطول ساعاته، أو من رداءة العلف وقلة دسمه... ما نحن إلا الجَلَد والعزم والصبر قد صُوِّرَت مخلوقاً حياً، لنكون قدوة لأمثالكم من الكسالى المترفين ولكنكم لا تُبصرون ولا تُريدون أن تفتحوا أعينكم حتى على خيبتكم المائلة ما من واحد فيكم يريد أن يعرق ليستحق لقمته... موظفكم ينظر إلى ساعة الإنصراف ولما يبدأ في العمل، ويهمه المرتَّب والترقية ولا يعنيه الانتاج، فإذا نُقِل إلى (الصعيد)، هاجَ وماجَ..

وطلابكم يريدون أن يجتازوا الإمتحانات بغير درس، ولا يعنيهم العلم في ذاته، بل يطلبون شهادة تغطي فيهم الجهل، وتفتح لهم الخزائن وتصعد بهم الدرجات،

وعمّالكم يفكرون في زيادة الأجر وإنقاص العمل ولا يهتمون بالإتقان ولا بمصالح (الزبون) ورؤساؤكم يعنيهم أن يُنشر عنهم إنهم قاموا بكذا ونهضوا بكذا ولا يهمهم بعد ذلك قيام حقيقي أو نهوض وشبابكم أصبح مَثَلَهُ الأعلى يتلخّص في كلمتين:(سيارة وفتاة) ولا يعنيه كيف يحصل عليها بل كل أمله وهدفه أن يظفر بها من غير جهد ولا جهاد، ان شعار الكثيرين فيكم اليوم هو:

((أن السماء يجب عليها أن تمطر ذهباً وفضة ونحن قعود))! الحلم الذهبي للجميع الآن هو الثراء والاثراء بغير مجهود... إن الحرب قد حققت بالفعل لبعضكم هذا الحلم ولكن ماذا أنتم صانعون في زمن السلم؟... بأي سلاح تواجهون التنافس العظيم على الانتاج والصراع الشديد على الأرزاق؟.. أَبمبدأ (الجهد الأدنى والغنم الأسنى) الذي إعتنقه الكل فيكم من شبابكم إلى شيبكم؟!..

– حقاً تلك مشكلة لا أدري لها حلاً!...

– حلها بسيط...

– ماهو؟...

– أن تعتنقوا مبدأ فصيلتي: (*لا راحة بغير عمل*، *ولا لقمة بغير عرق*، *ولاثروة بغيرإنتاج*)!...

– نعتنق مبدأ الحمير؟!..

– ولمَ لا؟..

– في الحق إن التطاحن في الغد هائل.. وإن حرب السلام ستكون علينا أشق وأعنف من حرب الدماء... ولقد أردنا أن نجنّب أنفسنا الويلات في كل ميدان... وأن نهرب بجلدنا من وخزة الدبوس ولسعة (الناموس)...ولكن...

– ولكن آن الأوان لتعرفوا معنى الصبر والجَلَد والعمل...

– سنعرف، وسترغمنا الحياة غداً على أن نعرف...

– اليوم خمرٌ وغدا أمرُ... هلم بنا إلى ستانلي، وسيدي بِشْر، وجليم!...

– مهلا.. ضميري غير مستريح وأنت المسؤول.. ماذا قدمنا من عمل ضمن عامنا لنكون جديرين بهذا اللهو والمرح؟...

– قدّمنا...

– كم غبيطاً من السماد حمل ظهرك؟...

– أنت تعرف أني لا أحمل اليوم سماداً؛ بل أفكاراً...

– يا له من تدهور!...

– لا تدهور ولا تقدم ولا تأخر... ما الأفكار سوى نوع من السماد... وحامل الأفكار كحامل السماد...وما أنت في الحقيقة غير نوع من...الحمير!...

– أشكرك...

حماري والجنة والنار

جلس حماري إلى جانبي ذات ليلة... وكانت الليلة مقمرة... والسحب الرقيقة البيضاء لها هفيف يُرى ولا يُسمع كأنها أجنحة الملائكة.. كان كل شيء من حولنا يجعل النفس تحلم أو تغوص في أعماق الخيال... حتى حماري أطبق عينيه نصف إطباق، وبدا عليه أنه يريد هو الآخر أن يحلم...ولم ألبث فعلا أن سمعته يهمس قائلاً:

– ماذا بعد الموت؟... الجنة والنار؟...

– طبعاً.

– وأنت في أي مكان منهما ستكون؟...

– من باب التواضع أقول لك في النار...

– لو كان لك خيال حقاً لتصورت الآن مصيرك، ما قولك لو حاولت الآن إختراق حجُب الغيب لتصف لي ما سوف تجد في النار من المعارف والأشخاص والأشياء.

فسكتُّ لحظة أفكّر.. وقد أثار في نفسي قول حماري رغبة حقيقية في تخيل ذلك.

ولم يمض قليل حتى صحت فيه قائلاً:

– إسمع! إني أتخيل الآن ثلاثة مناظر تجري على هذا النحو:

المنظر الأول

(جنة الخلد بأشجارها وأطيارها وفاكهتها وكوثرها والصحفي أحمد الصاوي محمد جالس القرفصاء، كئيباً حزينا مفكراً مسنداً رأسه الأصلع إلى جذع شجرة دانية القطوف...)

إحدى الحور: (تمر بالصاوي فتصيح) عجباً (ما قَلَّ ودل) هنا؟!...

الصاوي: (يرفع رأسه وينظر إليها) أيدهشك ذلك يا آنستي؟.. صدقت والله... أنا نفسي مندهش... نعم، (ما قل ودل) هنا، لا (أهرام) ولا (مجلتي) ولا مطبعة ولا (كليشهات)!... حتى ولا عزبتي التي كانت على ترعة المنصورية!..

الحورية: أراك ضجراً...

الصاوي: *لقد أكلت من الفاكهة حتى تلفت أحشائي وشربت من الكوثر حتى انتفخ بطني، وتسلقت الأشجار، وجريت وراء الأطيار*،

أتعرفين أيتها الأنسة أن شجر المانجو هنا هو من نفس نوع المانجو الذي عنيت بزراعته في عزبتي؟.. لا بد أنهم جاءوا بالبذور من عزبتي آه.. إنها لَذِكرى حلوة *ولكن ما بعد كل هذا*؟.

الحورية:(باسمة) أغازلت الحور؟..

الصاوي: طبعاً... هذا أول ما حصل...

إسمعي أيتها الآنسة... (يستدرك)... أيتها الحورية!... لا شيء يسعدني في هذه الجنة الّا أمر واحد: إصدار (مجلتي) هنا كالمعتاد، نصف شهرية.. (ينهض بقوة) لقد إختمرت الفكرة في رأسي طويلا...

إن أهل الجنة في أشد الحاجة إلى مجلة تقدم لهم خلاصة أدب العالم وقصصه ومسرحياته، وروائع الأدب المصري..كلا.. لم يعد هنا مصري ولافرنسي..لا بأس،

نبحث فيما بعد عن الالفاظ التى تلفت الأنظار، ومن وسائل الاعلان التي تجتذب المشتركين والمشتركات...

على أني أبدأ بتوجيه النداء إلى الذين انضموا إلى أسرة مجلتي في الدنيا، فهم أَوْلى بالاستمرار في المساهمة ومن بادر منهم تمتع بالاشتراك المخفَّض، مع حفظ الحق في الهدايا، بمثل ما كان يتمتع به في الدنيا...

الحورية: (باسمة) حتى يعلم المشترك أنه (مع الصاوي يكسب دائماً)!..

الصاوي: (باسماً) في الدنيا والآخرة!...

المنظر الثاني

(الصاوي بين يدي سيدنا رضوان عليه السلام على مقربة من باب الجنة .....)

رضوان: (كالمخاطب نفسه) ماذا اسمع.. مجلة في الجنة؟!

الصاوي : وما الضرر!. انها لفكرة بديعة يا سيدنا رضوان.. إن هذه المجلة ستكون لسان حال المؤمنين والمؤمنات...

نعم.. خصوصا الأخيرات من الحور الجميلات، فإني كنت في الدنيا أعرف كيف أكتب لأُرضي النساء... ثق أن مجلتي هنا سيكون لها رواج وإنتشار، وستطرد الملل من الصدور...إني قد أعددت كل شيء لإصدارها في ثوب قشيب محلاة بالصور ذات الألوان.... إنه لا ينقصني سوى الكُتّاب والأدباء الذين كانوا يمدونني بمقالاتهم في الدار الفانية.

رضوان: أَلَم تَرَهم هنا؟...

الصاوي: لم أرَ منهم واحداً هنا..

رضوان: قد خانك ولا ريب النظر رغم منظارك السميك... مَن تريد منهم وأنا أدلك عليه؟...

الصاوي: أريد الحاج... **رضوان:** أى حاج؟... الجنة مكتظة بالحجاج...

الصاوي: الحاج هيكل!...

رضوان: (يفكر قليلاً) هيكل؟. صدمت. إنه ليس هنا..

الصاوي: سبحان الله!.. مؤلف حياة محمد!؟...

رضوان: لا تعترض يا هذا ولا تكفر...

الصاوي: اللهم لا إعتراض!...(لنفسه همساً) ترى ماذا صنعت أنا من الحسنات حتى أدخلوني هنا!...

رضوان: أتريد أن تسأل عن أحد آخر؟...

الصاوي: أريد أن أسأل عن ((العقّاد)) مؤلف كتاب (عبقرية محمد)؟.

رضوان: العقاد ليس هنا..

الصاوي: يا للعجب ... ياللعجب..

رضوان:عمن تريد أن تسأل أيضاً؟...

الصاوي: أريد أن اسأل عن (توفيق الحيكم) فقد كان ألّف في دنياه كتاب (محمد)؟

رضوان: توفيق الحكيم!... ليس هنا كذلك هذا المخلوق...

الصاوي: سبحان الله. سبحان الله....

رضوان: هات غيره....

الصاوي: دِلّني إذن على (طه حسين) فقد كان ألّف كذلك كتاب (على هامش السيره).

رضوان: طه حسين!.. ليس هو أيضا هنا...

الصاوي: اللهم عفوك ورحمتك!..

رضوان: لا تعترض يا هذا ولا تكفر!..

الصاوي: (همساً) لا إعتراض ولا كفر...قد فهمت الآن... ما أدخلني أنا الجنة إلّا كتاب (باريس)!...

رضوان: بم تهمس؟...

الصاوي: يا سيدنا رضوان...لي عندك رجاء... أتأذن لي في الذهاب إلى النار مدة نصف ساعة فقط ثم أعود؟!...

رضوان: ماذا تصغ هناك؟...

الصاوي: أقابل هؤلاء الأربعة (المساكين)، وأتناول مع كل منهم (فنجان قهوة) أفتح به الأعداد الأربعة الأولى من مجلتي في عهدها الجديد..

رضوان: ماذا تقول؟... تتناول (فنجان قهوة) في الجحيم!...

الصاوي: (فرحاً) نعم... فنجان قهوة مع (....) في الجحيم!... يا له من حديث صحفي عجيب مبتكر لم يسبق له مثيل في صحافة العالم... نعم سافتح به الصفحة الأولى، وأزينه برسم هزلي بريشة مسيو(سانتيز)!...

رضوان: (في عجب) أَوَ تحسب يا هذا أن في الجحيم (قهوة) من بُن!.

المنظر الثالث

(في الجحيم – الصاوي بين اللهب والدخان، يمشي بخطىً وئيدة يتصفح الوجوه..).

الصاوي: (يرهف السمع) أسمع ثرثرة!... يُخَيَّل أليَّ إني إعرف صاحب هذا

الصوت الجهوري... فلأقترب منه...

عجباً!.. هذاالدكتور طه حسين.... تُرى ما سبب صخبه وضجيجه....؟

طه حسين:(يصيح فيمن حوله)، نعم.... *إني غير راضٍ عن الحياة هنا... إنها فاترة راكدة لا يظهر فيها نشاط ولا إنتاج فحسب، بل قد يمضي العام كله، بل قد تمضي الأعوام كلها دون أن يظهر في الأفق حدث من الأحداث. وهذا الركود مؤلم حقا إذا قارناه بذلك النشاط الغريب الخصب الذي ظهر في حياتنا الأدبية في الدار الفانية... فقد كان هذا النشاط قيّما حقاً*، لَفَتَنا إلى أنفسنا، ولفت الناس إلينا، فإذا نحن نرى من أنفسنا ما لم نكن نرى من قبل... نشهد إبتكاراً في الرأي، واجتهاداً في التفكير وإنتاجاً في الأدب، وخصومات تُثار حول هذا كله فنضيف ابتكاراً إلى ابتكار، واجتهاداً إلى اجتهاد وإنتاجاً إلى انتاج،

لا نكاد ننظر في صحيفة أو مجلة إلّا رأيناه مظهراً لهذه الحياة الخصبة، وكان الرأي العام نفسه يشاركنا في هذا النشاط؛

فكانت الجماهير ترضى حيناً وتسخط أحيانا، وتؤيد تارة وتقاوم تارة أخرى...

(جماعة من أهل الجحيم تتفصد أجسامهم عرقاً ويتأوهون من عذاب النار يلتفتون نحو طه...)

الجماعة: إتَّق الله يا شيخ!. ألا ترى ما نحن به من عذاب.. أي إنتاج وأي نشاط في هذا البلاء؟...

رجل من الجماعة: إتركوه...إنه أديب!...

الجماعة: أَوَ ليس الأدب آدمياً؟ ألا يشعر هذا الرجل بألم السعير وعذاب الجحيم!.

طه حسين: إنما الجحيم حقاً هو العيش بين هؤلاء الهامدين!.

(يذهب الأديب.....)

الصاوي: (يسرع خلفه) يا دكتور!... يا دكتور طه.. إنه يُسرع في خطاه ولا يسمع صوتي من هرج الناس...

عجباً! هذا الرجل يشبه العقّاد؛ بل هو العقّاد بعينه...

نعم هو بقوامه المعتدل المديد كالرمح الصلب.. ما باله يسير هكذا يتصفح جوانب الطرقات كأنه يبحث عن شيء...

العقاد: (يصيح نافذ الصبر) *مكتبة يا ناس!... ألا توجد هنا مكتبة واحدة؟. ما هذه المخلوقات التي لا تقرأ*؟ وأنا الذي جاء النار برضاه وإختياره، حاسباً أنه يجد فيها الجبابرة من الفلاسفة والمفكرين، والقيِّم من الكتب والمكتبات.

الصاوي: يا أستاذ عبّاس!... أيها الأستاذ العقاد...

العقّاد: (لنفسه) إنه الجحيم... إن هذا لهو الجحيم المقصود.. *إن المكان الذي لا يوجد فيه إطلاع ولا تُعرَف فيه قراءة، ولا يُسمَح فيه بتفكير لا بد أن يكون هو الجحيم!...*

الصاوي: أيها العقاد!..ما باله لايسمعني... لقد انصرف...لقد إختفى!.. آه... لقد تعبت.. وأخشى أن تفوت نصف الساعة فيقفل دوني باب الجنة....

عجباً!... هذا رجل كهيكل... كأنّا به يبحث عن أحد بين الجموع..نعم... هو الدكتور هيكل بعينه!... ترى عم يبحث؟...

الصاوي: (ينادي) يا دكتور هيكل!...

هيكل: (لنفسه يائساً) لست أجد هنا صديقاً ولا أديباً... أين زملاؤنا؟. لماذا لا يتقابل هنا الآدباء ورجال الفكر والقلم!... إن عذاب النار – بالغاً ما بلغ – لا يؤلم نفسي قدر ما يؤلمها سبب إدخالي هذا المكان... لا سيما وانا الذي...

الصاوي: يا حاج!.. يا حاج!.. انه لا يسمع ندائي!...: (ماضياً في كلامه)

أنا الذي قمت بالدعوة للإسلام ولمحمد بما لم يقم به ألف أزهري!.. ومع ذلك فلنُصبر صبراً جميلاً... (يصيح بأعلى صوته)

(إن الله وملائكته يصلون على النبي،يا أيهاالذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما)!..

(**جماعة من الأزهريين بقربه ساخرين صائحين**): ولو!!..

هيكل: (مُلتفتاً اليهم): إن بعض الناس ما زالوا يرتابون في صدقي وإخلاصي.. أولئك هم الحمقى..

– أو مَن في قلوبهم مرض!.. فلنترك لهم المكان...

(يبتعد.....)

الصاوي: (في أثره) يا هيكل!... يا حاج هيكل!... لقد إنطلق مسرعاً ولن أستطع اللحاق به!... (**يلتفت إليَّ إنسان عن كثب فيصيح**) يا للغرابة.. هذا ((توفيق الحكيم)) يمرُّ هناك بين اللهب ملوحاً بعصاه مرتدياً معطفه الصوفي الأسود وهو ينظر يميناً وشمالاً خائفاً من وجود (تيّار هواء)..

توفيق الحكيم: (يبحث حوله) أين (موزارت)؟.. لَكَم تُقْت إلى رؤية هذا الموسقي في الدار الآخرة.. لكن من المستحيل أن يكون هنا صاحب تلك الألحان السماوية!.

لقد كان – حتى في دنياه – على إتصال بالفردوس، نعم (موزارت) الإلهي هو من أهل الجنة بلا مراء ;

الصاوي: (يخطو نحو توفيق الحكيم صائحاً) يا عدو المرأة..

(جماعة من نساء النار يسمعن صوت الصاوي فيقبلن في هرج...)

النساء: (صائحات) أين هو عدو المرأة؟...

الحكيم:(**يلقي عيلهن نظرة شاملة**) ما كل هؤلاء!!.. لم يكن عندي ريب في أن

تسعة أعشار أهل الجحيم من النساء!...

النساء: خَسِئْتَ!.. لاشيء يعزينا ويثلج صدورنا مثل إدخالك السعير!..

الحكيم: وأنا لو لم أجدكن هنا لاختلط عليَّ الأمر وحسبت أني في الجنة!..

النساء: (يلتقطن أحجاراً ملتهبة يقذفنه بها) خذ إذن جزاءك...

الحكيم: صدّقت الآن وآمنت أني في الجحيم!!...

(يبتعد عنهن هاربا)

الصاوي: (صائحاً) يا توفيق الحكيم.. إنه لا يسمع ندائي... ما بالهم كلهم كأنهم صُمٌّ لا يسمعون ندائي!.. يا عدوّ المرأة!..إنه فر هارباً وهن في أثره بالحجارة! لا أمل لي في مخاطبة واحد من هؤلاء الأربعة: فلأرجع من حيث أتيت قبل أن...

(يسير نحو باب الجنة)

رضوان: (يصيح) فات الوقت!... وإنقضى نصف ساعة، وأغلق دونك باب الجة أيها الكافر بنعمة ربه!.. لقد سعيت إلى النار بقدميك توقاً إلى أهلها، فإلبث فيهم وإجرع معهم ما شئت من (فناجين القهوة)!...

جماعة من أهل النار: (قائلون) يا للعجب!... من هذا الإنسان الذي أُدخِلَ الجنة فتركها وجاء بقدميه إلى النار؟!...

رجل: (من الجماعة) لا بد أنه صحفي!!...

الصاوي : (صائحاً متضرّعاً) يا سيدنا رضوان!... عفوك ورحمتك لقد شغلني عن الوقت حرصي على مقابلة الكتّاب وجمع المقالات!... ولكن رحماك!... إفتح لي الباب هذه المرة، فإني قد تبت إلى الله وإليك... ولك عليَّ عهد وميثاق ألا يذكر لساني كلمة مجلة في الجنة بعد اليوم... فأني ساعيش كبقية عباد الله الصالحين، آكل الأثمار وأسامر الأطيار وأغازل الحور!...

فبراير ١٩٤٥

فهرست الكتاب

	الموضـــــوع	الصفحه
*	مَن هو حماري	١١
*	حماري والطوفان	١٦
*	وهتلر	٢٤
*	وموسليني	٣٥
*	ومؤتمرالصلح	٤٣
*	وحزبه	٥٠
*	والذهب	٥٨
*	والسياسة	٦٥
*	والطالبة	٧٢
*	والقاضية	٧٩
*	وحزب النساء	٨٥
*	وعداوة المرأة	٩٠
*	والمحكمة	٩٥
*	والجريمة	١٠١
*	ومنظري	١١٠
*	وصورتي	١٢٠
*	والنفاق	١٢٦
*	والكفاح	١٣٢
*	والجنة والنار	١٣٨

Bibliotheca Alexandrina
0293964

دار مصر للطباعة الثمن ٢٥٠ قرشاً

سعيد جوده السحّار وشركاه

قراءة نقدية في كتاب (حِماري قالَ لي) لتوفيق الحكيم / الجزء الأول

سالم الدليمي

توفيق الحكيم الكاتب والأديب المصري المولود في ٩ أكتوبر ١٨٩٨ والمتوفي في ٢٦ يوليو ١٩٨٧، من الأسماء البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث فهو من روّاد الرواية والكتابة المسرحية العربية.

صدر كتابه (حماري قال لي) عام١٩٤٥، عاصر كاتبنا أحداث عالمية كبيره كالحربين العالمية الأولى والثانية، وكان أن تشكّلت عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى والتي فشلت في مهامها فلم تستطع أن تمنع قيام حرب عالمية ثانية، حيث تشكلت بعدها هيئة الأمم المتحدة وصدرت لائحة حقوق الإنسان، لِذا نرى حضور أبطال تلك الأحداث حاضرةً في كتاب الحكيم هذا، وكانت في تلك الفتره قد نشطت الأفكار اليسارية التحررية صاحبتها نهضة فكرية وأدبية عربية (خاصة في مجال الشعر) حيث نجد الجواهري يتصدّر عرش الشعر العربي وتليه كوكبة كبيره من شعراء العراق والشام ومصر وبقية الدول العربيه، حيث كُتِبَت أفضل القصائد وأتمّها فصاحة وبياناً وفلسفةً. وحسب رأيي البسيط أن الأدب الموجّه لخدمة قضية معينه وجد طريقة بين أدباء تلك الفتره. وكان توفيق الحكيم من بين من توجّه بأدبه للشعب المصري بشكل خاص وللشعوب العربية بوجه عام فاتحاً أمام القرّاء الشباب باباً لمراجعة الموروث الثقافي بغية تخليصه مما يراهُ أساطيراً وخرافات، ولقد إستهلّ كتابه هذا بالحديث النبويُّ الذي رواه إبن عمر رضي الله عنهما " إنّي لأمزَح ولا أقولُ إلّا حقّاً "

فالحكيم هنا يضعنا بين مُزاحه – حين يُحدثنا بلسان – حماره وبين جديّة القصد في حديث الحمار هذا. وأظنّهُ عَمَدَ إلى ما لجأ إليه الفيلسوف الهندي فيشو شارما (بيدبا) في قصته "**كليلة ودمنة**" التي لم يكن بإستطاعته البوح بفلسفته علناً فعهد للحيوانات روايتها بألسنتها.

بعد تقديم لعلاقة توفيق الحكيم بالحمير وتفهّمهُ لما يكابدهُ هذا الحيوان المسكين من قهر وتعسّف وسكوته وصمته على كل هذا وكأنه كائن عاقل رضخ صاغراً لجبروت سلطان البشر وهو العارف بكلما يدور حوله، لا يمنعه من المساهمة في إصلاح الحال العام سوى فقدان لغة التفاهم مع البشر، فوجد اليها سبيلاً مع توفيق الحكيم..

ففي إسطورة الطوفان التي وردت في الكتب السماويه ومن قبلها في الرقُم الطينيه (بكتابتها المسمارية) في حضارة بابل، والتي ترجمها عالم الآثار العراقي الحلّي (طه باقر) الذي فك رموز تلك الكتابة، يبدأ توفيق الحكيم رؤيته بالطوفان على لسان حماره ففي الفصل الأول من الكتاب وتحت عنوان (حماري والطوفان) ص١٦ يجد الحمار مدخلاً لتلك القضية فيقول لكاتبنا " زامَلناكم، وركبنا معكم سفينة نوح في عهد الطوفان" ليخْلِص أولاً إلى عرض بداية خلق بعض الحيوانات كالفأر والقط والخنزير وكأنها خُلِقت في سفينة نوح ذي الثلاث طوابق طبقاً لكتب التراث الديني الإسلامي، وإنها استوعبت أكثر من ستة عشر مليون كائن حي (كآخر ما نعرفه عن عدد الكائنات الحيّه بضمنها النبات والمجهريات) لينتقل إلى التساؤل من الغرض والحكمة من الطوفان، فهو حسب التفسير الديني أن الله أغرق الأرض لما فيها من شرور وآثام وعبادة أوثان وبمن عليها من طغاة وظلم وفساد كانا قد عَمّا الأرض.. (إلّا تلك النُخبة الصالحة التي وُضِعَت في السفينة)، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير، وأجيالاً جديدة يقودها الحق، وهنا يتسائل الحمار فيقول:

" وهل سادَ بعد ذلك الخير، وإنتصر الحق؟!" وديانتنا نفسها تخبرنا أن قوم عاد كانوا

أول من عبد الأوثان بعد الطوفان؟

يُعرّج الكاتب شارحاً لنا (بين السطور) عجز النظرية الدينية عن تفسير بقاء الشر بعد الطوفان ليجدوا له تصريفة في أن إبليس تعلّق بذيل الحمار فركب السفينة ونجى من الطوفان.. يترك الكاتب الأمر لعقل القاريء المتبصّر ليحدد قناعته بتلك الرواية التي تبدو ركيكة مُفككة، ولم ينسى أن يضع للقاريء التفسير الديني لظاهرة قوس قزح التي درسها التلاميذ بكونها تحلل الضوء إلى أطيافه الملوّنه السَبعة حين يمر بقطرات الماء التي تتخلل الهواء بعد المطر، ليقارنها مع التفسير الديني بكون قوس قزح هو عهد الله لنوح في أن لا يُكرر الطوفان، لكنه كررهُ طوفان دماء شمل أصقاع واسعة من المعمورة.

وفي رد الكاتب على تساؤلاتهِ (على لسان حماره) ولكي لا يُتَّهَم بالخروج عن إيمان القطيع نراهُ يرمي كل الأسباب على الإنسان (لا على إبليس الذي تعلّق بذيل الحمار) ليؤكد للقاريء إيمانه بالخالق بقوله: "لم يستطع طوفان الماء، ولا طوفان الدماء، أن يغرق الأصنام التي يصنعها الإنسان لنفسه!.. إن الإنسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله.. لأن الله لا يميز بين جنس وجنس، ولا فصيلة وفصيلة"..

ويختتم الكاتب موضوع الطوفان ليضع (على لسان حماره) حلاً آخر بعيداً عن التعبّد وطلب العطف الإلاهي لخلاص البشرية وأجدُهُ يدعو صراحةً للعلمانية والأُممية التي نادى بها كارل ماركس في إقصاء التحزّبات الدينية والمذهبية السياسية حيث يجب أن يعيش الناس كـ (الحمير) فليس هناك حمار مثالي وآخر مادي وليس عندهم زعماء ولا قادة، ولا أوثان ولا أوطان.

في ص ٢٤ وص ٣٥ وص ٤٣ الفصل المعنوَن: (حماري ومؤتمر الصلح) أقحم توفيق الحكيم وجود الحمار في العنوانين فقط (حماري وهتلر.... حماري وموسوليني) ولم نجد في الفصلين من حوار أو رأي ليقوله على لسان الحمار، بل كانت رؤية

الكاتب محكية على لسان شهرزاد مع هتلر. وعلى لسان الجندي الحارس على زنزانة موسوليني في سجن بجزيرة (بونزا)، وكانت الأفكار المطروحه على لسان المحاورَين (شهرزاد والجندي) تمثلان رأي حمار الحكيم، وهي محاولات الكاتب لإظهار فشل الأفكار المتطرّفه والعنصرية التي كان يتبناها هتلر وموسوليني، وهي من جهة أخرى محاولة لإثبات قدرة الكاتب وحذقهُ في إدارة الحوار. وبرأيي المتواضع كان توفيق الحكيم قد أقحم هذين الفصلين في هذا الكتاب إقحاماً غير موفّقاً إلّا إذا كان يريد بها إتمام كتاب جَمَعه عن مقالات سابقه له، ففي الفصل المعنوَن (حماري ومؤتمر الصلح) وجدنا حمارِه في العنوان فقط، فلم ينوب عنه حماره في حضور مؤتمر الصلح الذي عُقِد بعد الحرب العالمية الثانية، فيحكي لنا الحكيم دراما ورطته في نسيان محفظة أوراقه المهمه فيستطيع بلباقته تجاوز الموقف ليُدلي برأيه وسط إنتباه وإعجاب ممثلي الدول الكبرى.. يعود حمار الحكيم للظهور بشكل فاعل في الموضوع المعنوَن (حماري وحزبه) ص٥٠ فيتناول موضوع الأحزاب السياسية، فيدسّ الكاتب بعض الجمَل (على لسان حماره) مما يتعرّض بهِ بشكل واضح لشخص النبي خاصة في موضوع تعدد الزوجات، حيث يقول الحمار مخاطباً توفيق الحكيم: " آرائي كلها صائبة... ما من مرة أوحيت إليك برأي خاطيء.... أنسيت يوم جعلنا نُحصي ما نشرتَ من أفكار؛ فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسي أنا.. وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت من رأسك انت؟ " فيستنكر الكاتب على حماره هذا و يطلب مثالاً على إدعائه فيرد الحمار:

" ما أضعف ذاكرتك.. "خُذ مثلاً رأيي الأخير الخاص بتعدد الزوجات " عندها يُجيبهُ الحكيم – *بما بعث الشك في نفسي كيف أن شيئاً كهذا يمر على الرقابة قبل ظهور الكتاب* – فيقول مُتَعرِّضاً وقاصداً شخص النبي محمد:

" يا ساترا!. ألم تَرَ كيف قامت قيامة النساء في كل مكان على هذا الرأي وقُلنَ:

إنه لايصدر حقاً إلا من الحمار " ونجدهُ في آخر فصل من فصول الكتاب (حماري والجنة والنار) يُذكّر النساء برأي الدين بهنَّ "أن تسعة أعشار أهل الجحيم من النساء" مُشيراً بذلك للحديث النبوي الذي رواه إبن عبّاس:
" (أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ،...) ".

قراءة نقدية في كتاب (حِماري قالَ لي) لتوفيق الحكيم – الجزء الثاني

سالم الدليمي

تناولتُ في الجزء الأول من تلك الدراسة تعرض الكاتب توفيق الحكيم لشخص الرسول الكريم ووصفه بالحمار، وسخريتهُ المبطنه في الكثير من المفاهيم الدينية الإسلامية، وأنا هنا (كدارِس) أتعجّب من مرور هكذا أمور على الرقابة المصرية فهذا الكتاب طبع مرات عديدة منذ أول صدور له في أربعينات القرن الماضي حتى اليوم.
ولنتابع فصول كتاب الحكيم، ولنقف عند نقده لتمسّك المجتمع العربي بالتقاليد والأعراف والموروثات فهو يقول إنَّ شعوبنا تظن انهم بضياع تلك التقاليد والأعراف (وإن كانت شكلية) فستضيّع حريتها وقوميتها وعقيدتها، فيصف الشعوب القوية الحرّه بأنها أوسع الشعوب صدراً وعقلاً ويأخذ الشعب الياباني فيقول: " وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة، والوطنية اليابانية العريقة؛ لم نسمع يابانياً ذكر كلمة (القومية) أو الوطنية، وهو يرتدي الزي الأوربي، لأنه لم يخطر قط بباله وهو يلبس (القبعة) أنه سيخلع (قوميته)... أما الشعوب الضعيفة فتتوهم دائماً أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتنا ستُخلَع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو بِرداء؛ فهي تنفعل

وترتعد وترتاع لمجرد المظاهر والالفاظ والكلمات "

ويطرح الكاتب حلاً لذلك بتوفير حرية الرأي والعمل بقوله: " حرية الكلام حتى يألَف الناس الألفاظ ولا يرتاعوا من الكلمات... وحرية الفكر والعمل والتصرفات حتى يَعتاد كل فرد إحترام رأي الآخر وعمله وتصرّفه دون أن يكون مضطراً إلى إتّباعه "إنها حقاً دعوه لمجتمع علماني في فتره مُبكّره، ليت المجتمعات العربية أخذت بها حينها، ويبدو الكاتب ساخطاً على مجتمعاتنا في عدم فهمها لدعواته وتبنيها لأفكاره ويتجلّى ذلك بوضوح في المقدمه التي كتبها الحكيم عن وشائج صلته بالحَمير في أول الكتاب حيث يروي لنا الحكيم كيف أوكَلَ في كتاباتهِ المسرحية أدواراً للحمار قائلاً: "فلم يفُتْني أن أجعل من الحمار شخصية في روايةٍ لي؛ فظهر على المسرح ولم أره للأسف، فقد كنتُ غادرتُ مصرَ وذهبتُ إلى أوربا فجاءتني الأخبار بأن الحمار أدّى واجبَهُ على أكملِ وَجه، وقامَ بدورهِ في الرواية على نحوٍ يستحق الإعجاب... ولكنه نظر بعد ذلك إلى جمهور المشاهدين نظرة عميقة؛ ثم فعل فعلةً غير لائقة لوَّثت خشبة المسرح وخرج بين سُخط الممثلين وهَرَج النُظّار والمتفرجين..

وقد بلغني أنه ضُرِبَ عندئذ وطُرِد وأُهين، ولو كنتُ أنا حاضراً لدافعتُ عن ذلك المسكين. وأغلب ظنّي أنه أدرك بغريزته أن الجمهور لم يفهم الرواية... فناب عني في إظهار إحتقاره له بالطريقة التي رآها مواتية."

هنا يؤكد لنا عدم فهم الجمهور له وأن فعلة الحمار التي أبداها لهم تنوب عن الحكيم ويؤيدها في إحتقاره لجمهور لم يفهمه.

أما رأي الكاتب بالأحزاب فيتجلّى في سطوره الأخيره من هذا الفصل في صفحه ٥٦ والتي يخلص اليها بعد حواره مع حماره في أنَّ على الأحزاب تبني مباديء الحريّة الإجتماعيه وبذلك تتم موافقته على إنشائها لكنه يختتمها بعبارة مُهينة للمُنتمين للأحزاب، حيث يُعلِن موافقته للحمار قائلاً: " لا مانع عندي الآن من تأليف الحزب

... إجمع الحمير!.. " فمن هم الحمير يا تُرى!؟ لأننا نجد الكاتب في آخر فصل (حماري والسياسة) ص ٦٥ ينصح حمارَهُ بالإبتعاد عن مضمارِها قائلاً: " إنك لن تؤثر فيهم بمبادئك.. ولكنهم هم الذين سيؤثرون فيك بمبادئهم... ولن يمضي وقت طويل حتى ترى أنك أنت لم تعد حماراً." أي لم تعُد طيب السريرة كسجيتك كحمار.

وفي فصول أخرى نجد الكاتب يُظهِر عامداً مواقف معادية للمرأة ففي (حماري والطالبة) ص٧٢ لا نجد للحمار دوراً سوى في العنوان حيث يتّخذ أحد زوايا المكتب مكاناً ينزوي فيه مستمعاً لحوار توفيق الحكيم مع الطالبة، ولا أظن أن الهدف من إظهار عداء الكاتب للمرأة إلّا لشيئين إثنين:

أولهما دفعها لقراءة مقالاته وكتبه وهي هنا غاية ساميه من الكاتب لجر المرأة للتعلّم والقراءة.. وثانيهما أن يعرض على لسانهِ المواقف المعادية لحرية المرأة ودخولها مجالات الحياة جنباً إلى جنب مع الرجل، وأظنّهُ وُفِّقَ في هذا فقد أعطاها دوراً أعجزها عن الحجّه فولّت هاربة، وحتى دور الهروب هذا قد يدفع بعضهن فيقبلنَ التحدّي لإثبات العكس، لكن رأي الكاتب الشخصي وليس المهني ككاتب نراهُ يقف ضد ولوج المرأة بعض أبواب العمل كالقضاء فهو يفترض أن عاطفتها ستكون هي المسيطرة وبالتالي ستأتي أحكامها منقوصة العداله فهو يفترض تأثر القاضية بوسامة وشياكة قاضي الدفاع، متناسياً أو (متجاهلاً عن عمد) نفس التأثير فيما لو قلبنا الأدوار وكان القاضي رجلاً متصابياً وكان محامي المتهم شابة ذات جمال أخّاذ.. وأغلبنا نعرف أن المرأة التونسيه خلال وبعد عهد الراحل بورگيبه تبوأت مناصب قضائيه كثيره ومثَّلن الإدعاء العام أيضاً، أما مهنة المُحاماة فنجد المرأة قد أمتهنتها في غالبية الدول العربية الأسلامية.

ويستمر الكاتب بين مزاحهِ وجديّتِهِ في القصد فنراه في فصل (حماري وحزب النساء) ص٨٥ يتقبّل دخول النساء في البرلمان ليُذكّر المرأة بطريقة ساخرة بأن الدين الإسلامي

حسبها بنصف عقل فجعل لها نصف صوت الرجل وحصّته فيقول: " أقترح الأخذ بمبدأ أن (للذكر مثل حظ الأنثيين) فيكون لكل امرأة صوت واحد... "، ويستطرد في نفس المجال قائلاً: " الّا إذا إعترض حزبهن الموقر بأن هذا الرأي أيضاً غير عملي (وهنا نراهُ مُحرّضاً ضد الآية١١ من سورة النساء والآية٢٨٢ من سورة البقرة).. بحجة أن إشتراط صوت لكل أمرأتين يتطلب وجود أمرأتين في البرلمان يمكن أن تتفقا على رأي واحد، وهذا بعيد الاحتمال. " نلاحظ هنا آخر العباره (وهذا بعيد الإحتمال) فالكاتب يُصِر على أن عقول النساء لا يمكن أن تتفق فيما بينها على شيء، مُتناسياً أن الرجال السياسيين كذلك لا تجمع بينهم سوى المصالح سواء كانت شخصيةً أم جمعية..

حتى موافقته تلك على مشاركتها للرجل في العمل وتمثيلها في البرلمان يُعللها لا لإمكانية المرأة على القيام بذلك بل لوصفها حسب قوله "هي كالقمر (كائن سلبي) وسطح مُعتِم في ذاته، لا تسطَع إلّا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل وإحساسه... فدنوها منه في مجال العمل المنتح، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة إلى جانب المصباح.. إنها تُضاعف نورَهُ، وتُزيدُ إشعاعَهُ... أما أن تنتظِر منها أكثر من ذلك فهو إنتظار للمستحيل "..

وفي فصل حماري وعداوة المرأة ص٩٠ يُحاول كاتبنا أن يجد لهُ أنصاراً من أُدباء عصره يقفون بالضد من المرأة، فوقع إختيارهُ على العَقّاد حيث أخذ الحكيم دوره في الرد على تساؤلات حمارِهِ فها هو كاتبنا يقول عن لسان حال العقّاد: " فمَنذا يستطيع أن يزعَم أني وقفتُ تجاه المرأة موقفاً ينُمُّ عن زراية أو بَغضاء؟... أين بدا ذلك منّي؟... هأنذا أُلقي بقفاز التحدي.. ومع ذلك أُصغي أحياناً إلى همسات تتصاعد من قرارة نفسي أرجو أن لا يكون لها صدى يبلغ آذان النساء، همسات تُنبئني بأن المرأة كانت في نظري، وتكون شيئاً لا يستحق غير الإمتهان "ويستطرد في مكان آخر في

نفس الفصل فيقول نيابة عن العقّاد " إني أُعامل المرأة كما ينبغي أن تُعامَل: لا بالعقلِ الرشيد، ولا بالمنطق السديد ".. ثم ليؤكّد رأيهُ هذا بقوله عنها: " إني أُبصِرُها... وأراها دائماً كما هيَ... وكما خلقها بارِئُها: فاكهة شهيّه غَضّة يَنحُرُ فيها الدود... فلننفض عنها دودَها، ونحن نُخفي إشمئزازنا، ولنُطْبِق عليها بأنيابِنا، ونلتهمُها بأفواهِنا، ثم نطرحُها جلدةً رثّة، وقشرةً بالية.. هكذا أراد لها القَدَر (وهنا يعني أن الله أراد لها هذهِ المكانة الدونيّة) فلماذا نريدها نحن على غير ذلك؟"

من هذا كلّه أستخلص أن الكاتب إنما كتب كل تلك المواقف ليوصلنا لتلك النتيجه: "هكذا أراد لها القدر.. فلماذا نريدها نحن على غير ذلك؟ " وهي دعوه صريحه للثورة على ما يراه الكاتب من نظرة دونية للمراة وجدناها في تراثنا الديني الإسلامي.

ودليلي أنه يختلق المواقف في حديثه عن المرأة لينصح القاريء بقولهِ" إسمع مني النُصحَ أيها الرجل: إذا أحببتَ إمرأةً فإصنَع ما أقولُ لكَ: لن أقول لك اليوم بالطبع ما كان يُقال قديماً: ((إذا دخلت على المرأة فلا تنس أن تُخفي في تلابيبك سوطاً))

وهو إشارة واضحة للحديث النبوي الذي أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير وإبن عدي والخطيب البغدادي: "عَلِّقُوا السَّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ أَدَبٌ لَهُمْ"

في فصل (حماري ومنظري) يستعرض الكاتب فكرة أن على الأنسان أن يجد أسباب القناعه بشكله الذي وُلِدَ عليه فشخصيته جزء لا يتجزأ من هذا الشكل، فبعد أن كان ساخطاً على السماء ويتجلّى ذلك بقولِهِ " طالما نَدبتُ سوءَ حظي ونصيبي وبكيتُ وإشتكيتُ لأن السماء خلقتني هكذا شكلاً وموضوعاً " صار يجدُ الأسباب للقناعه بما هو عليه فلو تحققت لهُ ثروة ((روكفلر)) وأخلاق (غاندي) ووسامة (كلارك جيبل) لما صار كاتباً لامعاً فهو يعتقد أن الوسامة والمال ستُحرِمُهُ موهبة الكتابه فنراهُ يتسائل جازماً بصحة رأيه فيقول: " أين في تاريخ الأدب والفن ذلك

المليونير الوارث الذي يَحني ظهره ليكتب أو يخلق" وهنا أجدُهُ قد وقعَ في خطأ كبير فأين هو من عميد الأدب العالمي (ليون تولستوي) الأمير الذي يملك مقاطعة ياسنايا بما عليها مِن بشر ودَواب!!؟ هذا الكاتب الفيلسوف الذي كان غاندي ينهل مِن سلوكه الإنساني حيث يتجلّى ذلك بوضوح في خطابات غاندي مع هذا الفيلسوف الروائي العظيم..

لقد كان كاتبنا الحكيم نرجسياً أكثر مما يجب فيتحدّث عن صورتهُ الزيتية التي رسمها له الرسّام المصري (صبري) قد إشترتها الحكومة المصرية لوضعها في متحف الفن الحديث .. وينتقد ظواهر سلبية في الصحافة المصريه مقارناً بمثيلاتها الغربيه وبالشارع المصري فيقول على لسان حماره " سمعت أن النفاق له قيمة كبرى في الأسواق العالمية، وأن أجوَد أنواعه يوجد في مصر" ليقارن النفاق في مصر بجودة القطن المصري طويل التيله، فالنفاق تمتد تيلتهُ الطويله لتصِل إلى الطرفين: الفرد والجتمع.. ففي بلدان اخرى من الجائز أن يعتنق الفرد رأيا مخالفاً للجماعة؛ فتنهض ضده الجماعة فيقبع في داره صامتاً، أمّا في مصر فيورد مثالاً قائلاً " أخبروني أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فإتهمهم الناس بالإلحاد؛ فلم يكتفوا بالصمت بل قاموا في اليوم التالي يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمائم الخضر" ويستطرد قائلاً في النفاق المجتمعي: " أنه ما من مجتمع في غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يُستقبَل الحاج القادم من الحجاز" وهذا النقد الموجّه للنفاق الأجتماعي يفوّضهُ من جديد في نقد المجتمع لتبنيهِ ثقافة دينيه بات الكثير من قوانينها بعيدةً عن مجتمعاتنا فهي تنتمي لمجتمعات البداوه القديمه فهو يسخر من المعممين من الشيوخ الذين يُبيحون لأنفسِهِم نظرةً متفحّصه لأنثى تمر من أمامهم معللين ذلك بما

ورد في كتب الفقه:(لك في الشرع نظرة واحدة لاحتمال أن يكون القادم أسداً).
لكون هذا مدخلاً جديداً يتخذهُ الكاتب لأنتقاد مفهوم الجنّة والنار والخلود في النعيم فيتسائل: " لقد أكلت من الفاكهة حتى تلفت أحشائي وشربت من الكوثر حتى إنتفخَ بطني، وتسلقتُ الأشجار، وجريت وراء الأطيار وغازلتُ الحور، ولكن ما بعد كل هذا؟؟ "

فهو يريد ان تستمر نشوة الإبداع وحلاوة الظَفَر بالنجاحات فيقول على لسان الدكتور طه حسين ".... إني غير راضٍ عن الحياة هنا... إنها فاترة راكدة لا يظهر فيها نشاط ولا إنتاج فحسب، بل قد يمضي العام كله، بل قد تمضي الأعوام كلها دون أن يظهر في الأفق حدث من الأحداث. وهذا الركود مؤلم حقا إذا قارناه بذلك النشاط الغريب الخصب الذي ظهر في حياتنا الأدبية في الدار الفانية... فقد كان هذا النشاط قيّما حقاً" وبهذا نجد أن الكاتب أراد أن يُمرر كل تلك الرؤى من خلال حماره حيث أنهُ نبّهنا أن كلُّما سيرِد بعد الحديث النبويُّ الذي رواه إبن عمر رضي الله عنهما " إنّي لأمزَح ولا أقولُ إلّا حقّاً " يعنيه الكاتب حرفياً..

هذا ما إستخلصتُهُ من قرائتي لكتاب توفيق الحكيم (حِماري قالَ لي) وتبقى للقاريء رؤىً أُخرى أَأملُ أن يُنوّرُني بها إذا كان قد وقف عند غير ما ذكرتُهُ في دراستي تلك.

سالم الدليمي